الأيام الستةُ في أرضِ الكِنانة

رحلةٌ ومقالات في تاريخِ مصر



سعود غسان البشر

2026

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة كتاب رحلة الأيام الستة إلى مصر

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، نحمدُه حمدًا يليقُ بجلاله وعظيمِ سلطانه، ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسِنا وسيئات أعمالِنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له. وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له، شهادةً نرجو بها النجاةَ يومَ الدين، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه، أرسله الله بالهدى ودينِ الحق ليظهره على الدين كله، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمّة، فصلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابتِه الغُرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. أما بعد:

لم تأتِ هذه الرحلة بوصفها نزهة عابرة أو استجابة لفضولٍ سياحيٍّ آني، بل جاءت بقصدٍ واضح يتمثل في التوثيق ومحاولة قراءة المكان قراءةً تاريخيةً متأنية، تنطلق من المشاهدة المباشرة وتستند إلى معرفةٍ مسبقة بالسياق الحضاري والسياسي والديني لمصر عبر العصور. فالمكان، حين يُقرأ بوعي الباحث، لا يُفهم في لحظته الراهنة وحدها، بل يُدرك بوصفه طبقاتٍ زمنيةً متراكبة، تختزن ذاكرة الإنسان وتحولات التاريخ في آنٍ واحد. وعلى الرغم من أنني سبق لي زيارة القاهرة ثلاث مرات قبل هذه الزيارة، فإن رحلة الأيام الستة إلى مصر جاءت مختلفة في منهجها وغايتها. فقد قصدتُ مصر هذه المرة ببرنامجٍ مخطّط، يركّز على زيارة مواقعها التاريخية الكبرى، والوقوف على تسلسلها الحضاري عبر العصور، من دون الانشغال بالمظاهر العصرية الحديثة، على الرغم من المرور ببعضها. وقد آثرتُ عدم التطرّق إلى تلك المظاهر في هذا الكتاب، لعدم ارتباطها المباشر بهدف التوثيق التاريخي الذي كُتب هذا العمل من أجله، إذ إن المقصود هنا ليس رسم صورة سياحية آنية، بل تثبيت الذاكرة التاريخية للمكان وقراءة الأثر بوصفه شاهدًا على التحولات الكبرى.

وتتميّز مصر بخصوصية حضارية نادرة، فهي من أقدم مواطن الاستقرار الإنساني المنظّم، وذات موقع استراتيجي فريد جعلها عبر التاريخ محورًا للتجارة والحرب والثقافة. فمنذ فجر التاريخ قامت على أرضها الحضارة الفرعونية، التي امتدت آلاف السنين، ومرّت بمراحل تطور طويلة قسّمها المؤرخون إلى ثلاث ممالك كبرى. تمثّلت الدولة القديمة في ترسيخ مركزية الحكم وبناء الأهرامات تعبيرًا عن السلطة والعقيدة، بينما جاءت الدولة الوسطى مرحلةَ إعادة

توحيد واستقرار بعد فترات اضطراب، ثم بلغت مصر ذروة قوتها في الدولة الحديثة، حين تحولت إلى قوة إقليمية كبرى امتد نفوذها إلى بلاد الشام والنوبة والسودان.

ولم يكن هذا التاريخ مسارًا مستقيمًا من الازدهار، فقد شهدت مصر فترات ضعف وصراعات داخلية وحروبًا أهلية أضعفت السلطة المركزية، ومهّدت لغزو الهكسوس الذين سيطروا على أجزاء من البلاد زمنًا طويلًا. ولم تستعد مصر سيادتها إلا بعد كفاحٍ طويل تُوّج بقيادة الملك أحمس، الذي نجح في طرد الهكسوس وإعادة بناء الدولة، في لحظة مفصلية أعادت للمصريين ثقتهم بقدرتهم على استعادة الأرض والقرار. ومع أفول العصر الفرعوني دخلت مصر مرحلة جديدة مع قدوم الإغريق بقيادة الإسكندر المقدوني، لتبدأ الحقبة البطلمية التي امتزجت فيها الثقافة اليونانية بالميراث المصري، وتحولت الإسكندرية خلالها إلى واحدة من أعظم مدن العالم القديم ومركزٍ للعلم والفلسفة. ثم انتقلت البلاد إلى الحكم الروماني، وارتبط تاريخها في هذه المرحلة بقصص سياسية شهيرة، أبرزها قصة كليوباترا وعلاقتها بيوليوس قيصر ثم مارك أنطونيوس، وهي مرحلة بلغ فيها تأثير الحضارة المصرية حدّ أن شُيّد هرم في روما اقتداءً بهرم الجيزة، في دلالة رمزية على حضور مصر في الوعي الروماني، فضلًا عن تعرضها لغزوات فارسية متكررة كشفت هشاشة السيطرة الإمبراطورية في أواخر العصور القديمة. وفي العصر الحديث المبكر شهدت مصر الاحتلال الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت في نهاية القرن الثامن عشر، وهو احتلال قصير المدة لكنه بالغ الأثر. فعلى الرغم من طابعه العسكري، فإن من أبرز نتائجه العلمية إرسال بعثات من العلماء والباحثين الذين درسوا آثار مصر ودوّنوها في مؤلفات موسّعة، فأسهموا في إعادة اكتشاف الحضارة الفرعونية، ومهّدوا لفك رموز اللغة الهيروغليفية، وانتقال دراسة مصر القديمة من دائرة الأسطورة إلى ميدان البحث العلمي المنهجي.

وجاء الفتح الإسلامي ليشكّل نقطة تحوّل كبرى في تاريخ مصر، حين دخلها عمرو بن العاص رضي الله عنه في القرن السابع الميلادي، فانتقلت العاصمة من الإسكندرية إلى الفسطاط، ثم جاءت الدولة الفاطمية فنُقلت العاصمة إلى القاهرة، التي استقرّت منذ ذلك الحين مركزًا سياسيًا ودينيًا وعلميًا. ومع سقوط الفاطميين برز دور صلاح الدين الأيوبي، الذي أعاد مصر إلى المذهب السني، وجعل منها قاعدةً رئيسة لمواجهة الحملات الصليبية، ثم جاء العصر المملوكي ليشهد ازدهارًا عمرانيًا وعسكريًا واسعًا، نجحت فيه مصر في صدّ المغول وتحولت القاهرة إلى واحدة من أعظم حواضر العالم الإسلامي.

وإلى جانب هذا الامتداد الحضاري والسياسي، تحتل مصر مكانة خاصة في تاريخ الأنبياء عليهم السلام، فقد عاشت على أرضها قصص نبوية عظيمة شكّلت جزءًا من الذاكرة الدينية للإنسانية. فقد وردت روايات عن قدوم إبراهيم عليه السلام إلى مصر، وعن قصة يوسف عليه السلام الذي عاش فيها وتولى شؤون خزائنها، وعن رسالة موسى عليه السلام وخروجه ببني إسرائيل منها، كما تشير مصادر تاريخية ودينية إلى أن عيسى بن مريم عليه السلام عاش جزءًا من طفولته في أرض مصر، وتحديدًا في منطقة الفسطاط ومحيطها.

في هذا السياق الحضاري والديني العميق بدأت الرحلة التي يوثّق لها هذا الكتاب. فقد وصلتُ إلى القاهرة عصر يوم الأحد الرابع من يناير ٢٠٢٦ على متن الخطوط الجوية السعودية، وحطّت الطائرة في القاعة الثانية من مطار القاهرة الدولي، ذلك المطار الذي يعكس – رغم ازدحامه – روح مدينة لا تهدأ. ومن هناك استقللتُ سيارة أجرة إلى فندق ماريوت جراند النيل المطل على نهر النيل، ذلك النهر الذي وصفه المصريون القدماء بأنه مصدر الحياة، وخلّد المؤرخ اليوناني هيرودوت معناه بقوله الشهير: (مصر هبة النيل). ومن هذا المشهد بدأت رحلة الأيام الستة إلى مصر، رحلة حاولتُ فيها التنقّل بين طبقات التاريخ، من الفرعوني إلى اليوناني والروماني، ومن الإسلامي المبكر إلى الأيوبي والمملوكي، وقراءة المكان لا بوصفه آثارًا جامدة، بل ذاكرة حيّة لا تزال تشكّل وجدان مصر إلى اليوم.

وقـد قُسّـم هـذا الكتـاب إلى جزأيـن؛ خُصّـص الأول لتوثيـق الأماكـن التـي جـرى الوقـوف عليهـا ميدانيًـا، بينـما خُصّص الثـاني لمقـالات كتبتهـا عـن مـصر في فـترات مختلفـة، بعضهـا منشـور سـابقًا، وبعضهـا كُتـب خصيصًـا لهـذا العمل.والهـدف الأسـاسي مـن هـذا الكتـاب هـو توثيـق الرحلـة بوصفهـا شـهادة زمنيـة، وفي الوقـت ذاتـه توفـير مرجـعٍ مسـتقبلي للباحثـين. فالتجربـة التاريخيـة تُثبـت أن قيمـة الكتـب تتضاعـف كلـما تقـادم الزمـن، ونحـن – كباحثـين ومؤرخـين – نعـود بشـغف إلى التدوينـات والرحـلات القديمـة لتعزيـز تفسـيراتنا وفهمنـا للسـياق. ومـن هـذا المنطلـق، يُهـدى هـذا الكتـاب إلى القـارئ الـذي سـيطالعه بعـد مئـة أو مئتـي عـام، ليجـده وثيقـةً زمنيـة تسـجّل صـورة مـصر كـما رآهـا شـاهدٌ معـاصر في مطلـع القـرن الحـادي والعشريـن. وهـذا الكتـاب، في جوهـره، ليـس إلا محاولـة لكتابـة شـهادة توثيقيـة لبلـدٍ لا يُختـصر في زمـن، ولا يُقـرأ مـن زاويـة واحـدة، ولا تُفهـم حضارتـه إلا عـبر هـذا الامتـداد العميـق الـذي يجعـل مـن مـصر تاريخًـا يمـشي عـلى الأرض.

المؤلف

سعود غسان البشر

يناير ٢٠٢٦

المحتويات

الجزء الأول: الزيارات الميدانية أثناء الرحلة

الجزء الأول: الزيارات الميدانية أثناء الرحلة

يُخصَّص الجزء الأول من هذا الكتاب لتوثيق الزيارات الميدانية التي قمتُ بها خلال رحلة الأيام الستة إلى مصر ، وقد كُتب هذا الجزء بوصفه سجلًا زمنيًا ومكانيًا دقيقًا لمسار الرحلة، انطلاقًا من لحظة الوصول، مرورًا بالمواقع التاريخية التي جرى الوقوف عليها، وانتهاءً بالخلاصات التحليلية المرتبطة بكل موقع. ولا يقتصر هذا الجزء على الوصف المكاني، بل يتجاوز ذلك إلى قراءة الموقع في سياقه التاريخي والحضاري بشكل مقتضب ، وربطه بالمرحلة التي نشأ فيها، والتحولات السياسية والدينية والعمرانية التي مرّ بها. وقد شملت الزيارات مواقع تنتمي إلى عصور مختلفة من تاريخ مصر، بدءًا من المعالم ذات الجذور الفرعونية، مرورًا بالمواقع اليونانية والرومانية، ثم الإسلامية بمراحلها المتعددة، بما في ذلك الفتح الإسلامي، والعصرين الأيوبي والمملوكي، وصولًا إلى بعض الشواهد المرتبطة بتاريخ مصر الحديث.

زيارة قلعة صلاح الدين بالمقطم

زيارة قلعة صلاح الدين بالمقطم

في يوم الاثنين الموافق ٥ يناير ٢٠٢٦، قمتُ بزيارة قلعة صلاح الدين، هذا المعلم التاريخي البارز الذي يعلو هضبة المقطم، ويُشرف من موقعه المرتفع على القاهرة التاريخية بأحيائها المتعاقبة. وقد أتاحت هذه الزيارة الوقوف عن قرب على مكانٍ لم يكن مجرد حصنٍ حجري، بل مركزًا للسلطة وصناعة القرار عبر قرون طويلة من تاريخ مصر. ويقع اختيار موقع القلعة على هضبة المقطم ضمن رؤية عسكرية وسياسية دقيقة؛ فالارتفاع يمنح السيطرة البصرية على القاهرة والفسطاط، ويربط بينهما ضمن منظومة دفاعية متكاملة هدفت إلى حماية المدينة من الأخطار الخارجية. ومن هذا الموضع، تبدو القلعة وكأنها عين القاهرة الساهرة، تراقب تحولات العمران والحكم في آنٍ واحد.

كما يرجع تاريخ إنشاء القلعة إلى أواخر القرن السادس الهجري، حين أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي ببنائها سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، في سياق الاستعداد لمواجهة الحملات الصليبية. وقد صُممت في أصلها حصنًا عسكريًا ومركزًا للقيادة، ثم تحولت مع اكتمال بنائها في أواخر العصر الأيوبي إلى مقرٍ للحكم، وهو الدور الذي استمر في العصور المملوكية ثم العثمانية، حيث أصبحت القلب السياسي والعسكري للدولة. وخلال مسيرتها التاريخية، شهدت القلعة أحداثًا مفصلية شكّلت مسار الحكم في مصر. ففي العصر المملوكي كانت مسرحًا لصراعات السلاطين والأمراء، ومنها صدرت قرارات التولية والعزل. وفي العصر العثماني استمرت مقرًا للولاة ومركزًا للإدارة العسكرية. أما في العصر الحديث، فيبقى حدث عام ١٨١١م من أكثر وقائعها تأثيرًا، حين شهدت القلعة مذبحة المماليك التي دبّرها محمد علي باشا، فأنهت نفوذهم ومهّدت لقيام الدولة المصرية الحديثة.

ومع تولي محمد علي الحكم، اكتسبت القلعة بعدًا عمرانيًا ومعماريًا جديدًا، تجلّى في تشييد مسجد محمد علي، الذي أصبح أبرز معالم القلعة وأكثرها شهرة، بما يحمله من رمزية سياسية ودلالات معمارية تعكس مشروع التحديث وبناء الدولة. وتضم القلعة اليوم معالم تمثل خلاصة العصور التي مرّت بها؛ فهي تحتضن مساجد تاريخية من عصور مختلفة، من أبرزها مسجد الناصر محمد بن قلاوون بطرازه المملوكي، ومسجد سليمان باشا الخادم بوصفه من أوائل النماذج العثمانية في مصر. كما تضم منشآت عسكرية كالأبراج والأسوار

وبـاب العـزب، إلى جانـب بـئر يوسـف العميـق الـذي أُنشـئ لتأمـين الميـاه زمـن الحصـار، في دلالـة واضحـة عـلى التخطيـط الدفاعـي المتكامـل. وإلى جانـب ذلـك، تحتضـن القلعـة عـددًا مـن المتاحف، مثـل المتحـف الحـربي ومتحـف الشرطـة.



زيارة جامع عمرو بن العاص في الفسطاط

زيارة جامع عمرو بن العاص في الفسطاط

في يوم الجمعة ٩ يناير ٢٠٢٦ عدتُ إلى الفسطاط، لا بدافع الاكتشاف هذه المرة، بل بدافع العودة. كانت زيارتي هذه هي المرة الثانية التي أقف فيها في رحاب جامع عمرو بن العاص، بعد زيارة أولى تعود إلى نهاية شهر أغسطس من عام ٢٠٢١. وبين الزيارتين مسافة زمنية قصيرة في حساب السنوات، لكنها واسعة في الشعور والتأمل، كأن المكان نفسه يختبر الزائر في كل مرة من زاوية مختلفة. ويعود جامع عمرو بن العاص إلى اللحظة التي بدأت فيها مصر فصلًا جديدًا من تاريخها، حين أسّسه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ/٦٤٢م، عقب فتح مصر. لم يكن المسجد في نشأته الأولى بناءً فخمًا، بل كان بسيطًا حدّ الزهد: مساحة متواضعة، وسقف من الجريد، وأعمدة من جذوع النخل. غير أن بساطته تلك كانت تعبيرًا صادقًا عن وظيفة المكان؛ أن يكون موضع اجتماع وصلاة، ونقطة انطلاق لعمرانٍ جديد نشأت حوله الفسطاط، أول عاصمة إسلامية لمصر.

ومع اتساع الفسطاط وتعاقب العصور، تمدّد الجامع وتحوّل. توسّع في العصر الأموي، ثم أعيد تنظيمه في العصر العباسي، واحتضن حلقات العلم والفقه، فكان مسجدًا وجامعًا بالمعنى الكامل للكلمة. مرّت عليه عهود الطولونيين والفاطميين، ثم المماليك، وكل عصر ترك أثره، لا على هيئة زخرفة طاغية، بل في تفاصيل البناء واتساعه وانكماشه، كأن المسجد كان يتنفس مع المدينة من حوله. غير أن اللحظة الأكثر قسوة في تاريخه جاءت في عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م، حين تعرّضت الفسطاط للحريق الشهير. في ذلك الوقت، كانت مصر مهددة بزحف الصليبيين بقيادة عموري الأول، فأمر الوزير الفاطمي شاور بإحراق المدينة كاملة، خشية أن تقع بأيديهم وتتحول إلى قاعدة عسكرية. احترقت الفسطاط أيامًا طويلة، وقيل إن النار ظلّت مشتعلة أكثر من خمسين يومًا، وامتد الدمار إلى المسجد نفسه، الذي تضرّر بشدة وكاد أن يختفي مع اختفاء المدينة التي وُلد فيها. كان ذلك القرار لحظة فاصلة؛ أنقذ البلاد عسكريًا في نظر البعض، لكنه أنهى الفسطاط كعاصمة، وترك جرحًا عميقًا في الذاكرة العمرانية لمصر.

بعد انقضاء تلك المرحلة المضطربة، أعيد بناء الجامع في العصر الأيوبي، في عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه، ثم توالت عليه أعمال الترميم في العصور اللاحقة. أما الفسطاط نفسها، فلم تستعد مكانتها، وانتقل مركز الثقل إلى القاهرة، وبقي الجامع شاهدًا شبه وحيد على مدينةٍ كانت يومًا قلب البلاد النابض. وقبل صلاة الجمعة، كان في الجامع قارئٌ يتلو القرآن بصوتٍ هادئٍ خاشع، على تلك الطريقة التي اعتادها أهل مصر؛ وهي من البدع التي لا

نقرها فلم يرد هذا العمل عن الرسول صلى الله عليه وسلم . كان المصلّون ينصتون في هدوء، بعضهم يقرأ، وبعضهم يسبّح، وبعضهم يكتفي بالجلوس. ثم صعد الخطيب الأزهري المنبر، وكان فصيحًا واضح العبارة، فجاءت خطبته عن قيمة الاحترام؛ احترام الإنسان لغيره، واحترام الاختلاف، واحترام النظام العام، وربط ذلك بالسلوك اليومي لا بالشعارات. لم تكن خطبة متكلفة، بل قريبة من الناس، تُذكّرهم بأن الأخلاق لا تُقاس في المواقف الكبرى فقط، بل في التفاصيل الصغيرة التي نمر بها كل يوم. شعرتُ أن مضمون الخطبة ينسجم مع المكان؛ مسجدٌ تأسس على البساطة، ويستمر بالبساطة ذاتها.

وكان لحرصي على الصلاة في هذا الجامع سببٌ فقهيٌّ شخصي لا أنفصله عن التجربة. فقد تعمّدت الصلاة في جامع عمرو بن العاص لأنه لا يضم ضريحًا، بخلاف كثير من الجوامع القديمة في مصر التي أُلحقت بها الأضرحة في عصور لاحقة. وقد آثرت ذلك خروجًا من الحرج الفقهي المتعلق بالصلاة في المساجد التي تحتوي على قبور، فكان هذا الجامع، ببنائه المفتوح وروحه الأولى، أكثر طمأنينةً لي من هذه الزاوية أيضًا. وحين أُقيمت الصلاة، شعرتُ أنني لست في مسجدٍ تاريخي بقدر ما أنا في مسجدٍ حيّ، يؤدي وظيفته كما أداها منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا. الأعمدة البيضاء، والصحن الواسع، وصفوف المصلّين المتراصّة، كلها كانت تقول إن الزمن هنا لا ينقطع، بل يتصل. وبين زيارتي الأولى في ٢٠٢١، وزيارتي الثانية في ٢٠٢٦، لم يتغيّر الجامع كثيرًا، لكن الذي تغيّر هو إحساسي بالمكان.


زيارة جامع عمر بن العاص - رضي الله عنه

رحلة مصر 2026

زيارة أهرامات الجيزة والمتحف الجديد

زيارة أهرامات الجيزة والمتحف الجديد

قمتُ بزيارة منطقة أهرامات الجيزة، وهي أكبر أهرامات مصر، مع العلم أن في مصر أهرامات أخرى عديدة، مثل أهرامات سقارة. وكانت الزيارة يوم الثلاثاء ٦ يناير ٢٠٢٦م. وتضم منطقة الجيزة ثلاثة أهرامات رئيسة هي: هرم خوفو، وهرم خفرع، وهرم منقرع، وقد شُيّدت جميعها في عصر الأسرة الرابعة خلال الدولة القديمة، أي قبل أكثر من ٤٥٠٠ عام. وتمثل هذه الأهرامات مشروعًا جنائزيًا متكاملًا يعكس تصور المصري القديم للحياة والموت والخلود. وقد اهتم المصريون القدماء بزخرفة المقابر، فالأهرامات في جوهرها مقابر، وكان بناؤها يستمر طوال حياة كل ملك.

يُعد هرم خوفو، أو الهرم الأكبر، أعظم هذه الصروح وأشهرها، وقد شُيّد للملك خوفو، ويُعد العجيبة الوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع في العالم القديم. ويتميز الهرم بدقة هندسية مذهلة، سواء في ضبط الاتجاهات أو في تنظيم الممرات والغرف الداخلية، مما يعكس مستوى متقدمًا من المعرفة الرياضية والهندسية والتنظيم الإداري في مصر القديمة. ولم يكن الهرم مجرد قبر، بل رمزًا للقوة الإلهية للملك وضمانًا لانتقاله إلى الحياة الأبدية. أما هرم خفرع، الذي شُيّد للملك خفرع، فيقع إلى الجنوب الغربي من هرم خوفو، ويبدو للزائر أحيانًا أعلى بسبب موقعه المرتفع وبقاء جزء من كسوته الجيرية عند قمته. ويرتبط هذا الهرم ارتباطًا وثيقًا بتمثال أبي الهول، الذي يجسد مزيج القوة والحكمة، ويُعد من أكثر الرموز غموضًا في التاريخ المصري، حيث يعكس فكرة الحراسة الأبدية للمجموعة الهرمية. كما ياتي هرم منقرع، المنسوب إلى الملك منقرع، أصغر الأهرامات الثلاثة حجمًا، لكنه لا يقل عنها دلالة. فقد اتسم هذا الهرم بعناية خاصة في مواد البناء والتفاصيل المعمارية، ويُنظر إليه بوصفه تعبيرًا عن تطور فكري وفني في العمارة الجنائزية، حيث بدأت النزعة الإنسانية في الظهور بشكل أوضح في فنون النحت والدفن.

وإلى جانب الأهرامات الملكية، شملت زيارتي بعض المقابر الملكية ومقابر كبار رجال الدولة المجاورة للمجموعة الهرمية، وهي ما يُعرف بالمصاطب. وهذه المقابر لم تكن مخصصة للملوك، بل لكبار الكهنة والوزراء وأقارب الملوك، وقد نُحتت جدرانها بنقوش دقيقة تصور مشاهد الحياة اليومية، من الزراعة والصيد إلى الطقوس الدينية، مما يجعلها مصدرًا غنيًا

لفهم المجتمع المصري القديم وبنيته الاقتصادية والاجتماعية. ومن خلال هذه المقابر يتضح أن فكرة الخلود لم تكن حكرًا على الملك وحده، بل امتدت – بدرجات متفاوتة – إلى النخبة المحيطة به. كما قمت بمشاهدة تمثال أبي الهول، الذي اختلف الباحثون في ماهيته، ويُعتقد أنه شُيّد لحماية الأهرامات بحسب اعتقاد المصريين القدماء. وقد ذهبت إلى الأهرامات برفقة مرشدة سياحية وسائق خاص، وكانت المرشدة متخصصة في الآثار.

وقد اكتملت زيارتي لمنطقة الجيزة بزيارة المتحف المصري الكبير، الذي افتتح نهاية العام الماضي، ويُعد اليوم أحد أضخم المشاريع الثقافية والمتاحف الأثرية في العالم، ليس من حيث المساحة فحسب، بل من حيث الرؤية التي يقف خلفها. فالمتحف لا يقدّم الآثار بوصفها مقتنيات صامتة، بل يعيد سرد التاريخ المصري القديم ضمن سياق علمي ومعرفي معاصر يربط بين الإنسان والمكان والزمن.

ومنذ لحظة الوصول، يلفت النظر الموقع الاستراتيجي للمتحف، إذ شُيّد على مقربة من أهرامات الجيزة، في اختيار رمزي يربط بين أعظم منجز معماري في العالم القديم وأكبر مشروع متحفي في العصر الحديث. وقد صُمم المتحف ليكون نافذة عالمية على الحضارة المصرية، مستخدمًا أحدث تقنيات العرض والإضاءة والتفسير البصري.

وخلال الجولة داخل المتحف، تبيّن لي أن فكرته لا تقوم على التكديس الكمي للآثار، بل على العرض السردي الذي يشرح تطور الدولة المصرية عبر العصور، من عصور ما قبل التاريخ، مرورًا بالدولة القديمة والوسطى والحديثة، وصولًا إلى الفترات المتأخرة. ويمنح هذا الأسلوب الزائر قدرة على فهم التسلسل التاريخي، لا مجرد مشاهدة القطع الأثرية منفصلة عن سياقها الحضاري. وكان من أكثر المشاهد حضورًا وتميّزًا تمثال رمسيس الثاني، الذي يستقبل الزائر في بهو المتحف، في دلالة واضحة على مكانة هذا الملك في الذاكرة التاريخية المصرية. فالتمثال، بما يحمله من ضخامة ودقة، لا يعكس القوة السياسية فحسب، بل يعبّر عن ذروة الفن والنحت في الحضارة المصرية القديمة. وقد نُقل هذا التمثال من ميدان رمسيس في وسط القاهرة إلى المتحف الجديد.

كما يبرز المتحف بعنايته الفائقة بمجموعات الملوك، وعلى رأسها مجموعة الملك توت عنخ آمون، التي جُمعت لأول مرة في مكان واحد، وقد قُدّمت بأسلوب علمي يبرز البعد الجنائزي والعقائدي المرتبط بفكرة الخلود. ومن خلال هذه القاعات يتضح كيف كانت الطقوس الجنائزية والفنون والرموز الدينية تشكّل منظومة فكرية متكاملة، لا مجرد مظاهر احتفالية. كما يوجد مرفق خاص لعرض مركب الفرعون خوفو (أومركب الشمس)، وهي سفينة خشبية أثرية ضخمة يزيد عمرها على ٤٦٠٠ عام، اكتُشفت مفككة قرب الهرم الأكبر، وتُعد من أروع اكتشافات مصر القديمة. وقد نُقلت بنجاح، في عملية هندسية معقدة، إلى قاعة خاصة بها في المتحف المصري الكبير، واستغرق تركيبها أكثر من عشر سنوات بمشاركة فريق من الخبراء اليابانيين، حيث كانت السفينة مفككة.



زيارة منطقة حصـــن بابليون
دليل سماحة المسلمين في مصر

زيارة منطقة حصن بابليون دليل سماحة المسلمين في مصر

في صباح يوم الجمعة ٩ يناير ٢٠٢٦ قصدتُ منطقة مار جرجس في الفسطاط، لا على عجل، بل برغبة واعية في التأمل واستعادة الذاكرة التاريخية، واستقليتُ مترو القاهرة من محطة أنور السادات في ميدان التحرير متجهًا إلى محطة مار جرجس، وكانت الرحلة قصيرة في زمنها الحاضر، لكنها قادتني مباشرة إلى طبقات عميقة من التاريخ المتراكم في هذه البقعة من القاهرة القديمة.وما إن خرجت من المحطة حتى بدا المكان مختلفًا في إيقاعه وروحه، إذ وجدت أمامي جزءًا متبقيًا من حصن بابليون، ذلك الحصن الذي يُعد من أهم المنشآت العسكرية الرومانية التي أُقيمت على أرض مصر، وأكثرها دلالة على التحولات السياسية والدينية والعمرانية التي شهدتها منطقة مصر القديمة عبر العصور، فالحصن لا يمثّل مجرد بقايا أثرية صامتة، بل يشكّل إطارًا تاريخيًا لفهم نشأة الفسطاط، وتطوّر منطقة مار جرجس بوصفها مركزًا دينيًا يحتوي الديانات السماوية الثلاث. ويرجع تاريخ إنشاء حصن بابليون إلى العصر الروماني المتأخر، ويُرجّح أن بناؤه في صورته المعروفة اليوم تم خلال القرنين الثالث أو الرابع الميلاديين، في فترة كانت فيها مصر ولاية استراتيجية للإمبراطورية الرومانية، وقد أُقيم الحصن على الضفة الشرقية لنهر النيل في موضع يتحكّم في الملاحة النهرية ويؤمّن الممرات البرية المؤدية إلى داخل البلاد، ما جعله نقطة ارتكاز عسكرية رئيسة ضمن منظومة الدفاع الرومانية في مصر. ومن الناحية المعمارية تميّز الحصن بأسواره السميكة المشيّدة من الحجر، وبأبراجه الدائرية الضخمة التي صُمّمت لتحمّل الحصار والدفاع طويل الأمد، ولا تزال بعض هذه الأبراج قائمة حتى اليوم وقد اندمجت لاحقًا في النسيج العمراني للمنطقة، حيث بُنيت فوقها أو بمحاذاتها عدد من الكنائس التاريخية. أما تسميته بـ(بابليون) فقد أثارت جدلًا تاريخيًا بين الباحثين، إذ يرجّح بعضهم أن الاسم تحريف لاسم مصري قديم، بينما يرى آخرون أنه تسمية رومانية لا صلة لها مباشرة بمدينة بابل في العراق، لكنها استقرّت في المصادر التاريخية المتعاقبة.

ومع تراجع النفوذ الروماني وانتشار النصرانية في مصر فقد الحصن تدريجيًا وظيفته العسكرية دون أن يفقد أهميته الاستراتيجية، إذ تحوّل محيطه إلى مركز ديني نصراني واتخذته الجماعات المسيحية ملاذًا آمنًا في فترات الاضطراب، وفي هذا السياق أُقيمت داخل نطاق الحصن أو فوق أبراجه مجموعة من أقدم كنائس مصر، من أبرزها الكنيسة المعلقة وكنيسة أبي سرجة وكنيسة مار جرجس، وهو ما يعكس تحوّل الموقع من رمز للسيطرة العسكرية إلى فضاء للعبادة والاستقرار الديني، ومن المهم الإشارة إلى أن الكنيسة المصرية تختلف منهجيًا وعقائديًا وطقوسيًا عن الكنائس الرومانية الكاثوليكية والبروتستانتية في كثير من الجوانب. ويؤمن النصارى أن عيسى ابن مريم عليه السلام اختبأ في مغارة في هذه المنطقة مدة تقارب أربعة أعوام عندما كان طفلًا، وهي المغارة التي تحولت لاحقًا إلى كنيسة أبي سرجة وأصبحت مزارًا دينيًا معروفًا. وتبدأ حكاية لجوء النبي عيسى عليه السلام إلى مصر بحسب الرواية النصرانية أنه بليلة مضطربة في بيت لحم حين تلقّى يوسف النجار، زوج مريم رضي الله عنها كما يعتقد النصارى، أمرًا في منامه بأن يحمل الطفل عيسى، الذي يطلقون عليه اسم يسوع، وأمه مريم ويهرب بهما فورًا اتقاءً لبطش الملك هيرودس الذي كان يطارد كل طفل يُخشى على ملكه منه مستقبلًا. وعلى الرغم من غلوّ النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام وتقديسه ورفعه إلى منزلة الألوهية، فإن عددًا من المفسرين الإسلاميين أيّدوا أصل رواية لجوئه إلى مصر، وأقرّوا بأن عيسى عليه السلام عاش جزءًا من طفولته فيها، فقد ورد في القرآن الكريم في سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ الآية ٥٠، وقد فسّر العديد من العلماء والمؤرخين، ومنهم الطبري وابن كثير، هذه الربوة بأنها أرض مصر، وجاء في تفسير الطبري عن سعيد بن المسيب قوله إن هذه الربوة هي من رُبا مصر، وإن خصوبة الأرض وارتفاعها عن الغرق جعلها موضع قرار ومعين.

وعند الفتح الإسلامي لمصر في القرن الأول الهجري، وتحديدًا في عام ٢١ للهجرة الموافق ٦٤٢ للميلاد، بعد معارك استمرت قرابة عامين مع الرومان انتهت بسقوط الإسكندرية عاصمة مصر في عهد الرومان، كان حصن بابليون حاضرًا في المشهد السياسي والعسكري، لكنه لم يتعرّض للهدم أو الإلغاء، بل نشأت إلى جواره الفسطاط، أول عاصمة إسلامية لمصر، في نموذج واضح للتجاور العمراني والديني، وقد أسهم هذا التجاور في تشكيل خصوصية المنطقة، حيث استمر الوجود المسيحي داخل نطاق الحصن في الوقت الذي تطوّر فيه العمران الإسلامي حوله. وتتمثّل القيمة الحضارية لحصن بابليون اليوم في كونه شاهدًا ماديًا على تراكب الحضارات في موقع واحد، حضارة رومانية ذات طابع عسكري، ثم مرحلة نصرانية ذات بعد ديني وروحي، ثم مرحلة إسلامية اتسمت بالتوسّع العمراني والتسامح الديني، وبقاؤه واندماجه في المشهد الديني لمصر القديمة يعكس نهجًا تاريخيًا قائمًا على استيعاب الموروث السابق والبناء عليه لا محوه أو إلغاؤه.

وكانت محطتي الأولى في تلك الزيارة المتحف القبطي، الذي دخلته بوصفه مفتاحًا لفهم ما حوله، ففي جدرانه تجمّعت شواهد المسيحية المصرية في فنها وكتابتها وطقوسها، لا باعتبارها تاريخًا معزولًا، بل بوصفها جزءًا أصيلًا من النسيج الحضاري لمصر، وخرجت من المتحف وقد أصبحت الصورة أوضح، فما سأراه لاحقًا في الكنائس ليس مباني منفصلة، بل امتداد حي لما رأيته موثّقًا خلف الزجاج. ومن هناك بدأت السير بين الكنائس، فظهرت أولًا الكنيسة المعلقة شامخة فوق أبراج حصن بابليون، وكان صعود درجاتها أشبه بعبور رمزي من الأرض إلى التاريخ، فهي كنيسة كانت مقرًا للبابا القبطي لقرون وتحمل في صمتها هيبة القيادة الروحية لا صخبها، وغير بعيد عنها تقع كنيسة أبي سرجة، الأكثر هدوءًا وعمقًا في الأثر، حيث يحتضن سردابها التقليد القبطي العريق المتصل برحلة العائلة المقدسة في مصر، وهي المغارة التي يعتقد النصارى أن عيسى ابن مريم سكنها طفلًا، وهنا لا يحتاج المكان إلى شرح، إذ يكفي الوقوف قليلًا لتشعر أن القداسة فيه أقرب إلى النفس من العين. وعلى مقربة شديدة تبرز كنيسة مار جرجس التابعة للروم الأرثوذكس بتصميمها الدائري الفريد القائم فوق أحد أبراج الحصن الروماني، وحضورها المعماري مختلف لكنه منسجم مع السياق العام، وكأنها

تقـول إن الاختـلاف لا يفسـد الانتـماء للمـكان الواحـد، وإلى جوارهـا تقريبًـا تكتمـل خريطـة التنـوع المسـيحي بوجـود كنيسـة العائلـة المقدسـة التابعـة للـروم الكاثوليـك ببنائهـا الهـادئ البعيـد عـن التكلّـف وحضورهـا الـذي يضيـف بعـدًا طائفيًـا آخـر داخـل مسـاحة صغـيرة دون أن يخـلّ بتـوازن المشـهد.

ثـم يـأتي معبـد بـن عـزرا، الكنيـس اليهـودي الأشـهر في مـصر، ففـي قلـب الفسـطاط وعـلى مقربـة مـن حصـن بابليـون والكنائـس العتيقـة يقـف المعبـد بهـدوء لا يلفـت النظـر بقـدر مـا يسـتدعي التأمـل، فـلا يعلـن عـن نفسـه كمعلـم صاخـب ولا يفـرض حضـوره بالضخامـة، بـل يكتفـي بـأن يكـون شـاهدًا صامتًـا عـلى فصـل طويـل مـن تاريـخ الجماعـة اليهوديـة في مـصر وعـلى مدينـة عرفـت التنـوّع الدينـي. وتعـود حكايـة المعبـد إلى القـرن التاسـع الميـلادي، إذ يُرجّـح أن المبنـى كان في الأصـل كنيسـة قبطيـة قبـل أن يتحـوّل إلى معبـد يهـودي، ومـع هـذا التحـوّل لم يتغـيّر المـكان جذريًـا بـل تغـيّرت وظيفتـه، كأن الفسـطاط كانـت تسـمح للأبنيـة أن تعيـش أكـثر مـن حيـاة دون أن تفقـد ذاكرتهـا الأولى، أمـا اسـم بـن عـزرا فيرتبـط بعـزرا الكاتـب في الـتراث اليهـودي ويحمـل دلالـة رمزيـة أكـثر مـن كونـه إحالـة تاريخيـة مبـاشرة. وعـلى مـدى قـرون كان معبـد بـن عـزرا مركـزًا دينيًـا واجتماعيًـا ليهـود الفسـطاط، فلـم يكـن موضـع صـلاة فحسـب بـل فضـاء تُـدار فيـه شـؤون الجماعـة وتُعقـد فيـه اللقـاءات وتُتـداول فيـه أخبـار التجـارة والأسـفار، ففـي تلـك الفـترة كانـت الفسـطاط مدينـة نابضـة بالحيـاة تتقاطـع فيهـا طـرق التجـارة وتلتقـي فيهـا الثقافـات، وكان المعبـد جـزءًا مـن هـذا المشـهد اليومـي لا جزيـرة معزولـة عنـه. غـير أن مـا منـح معبـد بـن عـزرا مكانتـه العالميـة لم يكـن معـماره، بـل مـا خَبّـأه في داخلـه دون قصـد للتاريـخ، ففـي إحـدى زوايـاه وُجـدت جنيـزة بـن عـزرا، ذلـك المخـزن الـذي أودِعـت فيـه عـبر القـرون أوراق لا يجـوز إتلافهـا بحسـب الشريعـة اليهوديـة، ومـع مـرور الزمـن تراكمـت الوثائـق حتـى أصبحـت كنـزًا معرفيًـا هائـلًا يضـم رسـائل شـخصية وعقـود زواج وسـجلات تجاريـة ونصوصًـا دينيـة مكتوبـة بالعبريـة والعربيـة والآراميـة،

وأنـا أمـشي بـين الكنيسـة والمعبـد كان جامـع عمـرو بـن العاص حـاضرًا في الذهـن وإن لم يكـن داخل مسـار الجولـة المبـاشر، فالمسـجد القريـب مكانيًـا والبعيـد زمنيًـا إلى القـرن الأول الهجـري يكمّـل الصـورة الكـبرى للفسـطاط، مدينـة نشـأت حـول المسـجد واحتضنـت الكنائـس وصانـت المعبـد .

إن المحافظة على هذه المعالم وترميمها وفتحها للناس ليست مجرد جهد أثري أو سياحي، بل دلالة عميقة على تسامح المسلمين مع الأقليات الدينية وحفاظهم على مقدساتهم، وهو تسامح لم يكن ترفًا أخلاقيًا بل قيمة إسلامية نبيلة تجذّرت في الفقه والممارسة فحفظت دور العبادة وأمّنت لأهلها حقهم في العبادة والوجود.

الفسطاط - حصن نابليون و مجمع الأديان











زيارة الجامع الأزهر في الجمالية

زيارة الجامع الأزهر في الجمالية

يُعد الجامع الأزهر واحدًا من أقدم وأعرق المؤسسات الدينية والعلمية في العالم الإسلامي، فهو ليس مسجدًا تاريخيًا فحسب، بل منارة علمية ظل إشعاعها ممتدًا لأكثر من ألف عام، ارتبط خلالها الأزهر بتاريخ مصر الديني والسياسي والفكري، وتأثر بتحولات الدول التي حكمت البلاد، من العصر الفاطمي إلى الأيوبي والمملوكي والعثماني، وصولًا إلى العصر الحديث، مع محافظته على مكانته بوصفه مرجعية علمية وروحية للمسلمين في أنحاء العالم.

تأسس الجامع الأزهر في العصر الفاطمي، إذ بدأ بناؤه سنة ٣٥٩هـ الموافق ٩٧٠م، بأمر من الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، ونفّذ البناء قائده جوهر الصقلي عقب فتح مصر وتأسيس مدينة القاهرة عاصمةً جديدة للدولة الفاطمية، واكتمل البناء وافتُتح للصلاة سنة ٣٦١هـ الموافق ٩٧٢م. وقد جاءت تسمية الأزهر نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، التي ينتسب إليها الفاطميون- كما يزعمون ولا نعتقد هذا-، وهو ما يعكس البعد المذهبي والسياسي الذي صاحب نشأة الجامع في بداياته.

في مرحلته الأولى، كان الأزهر مسجدًا جامعًا تُقام فيه الصلوات وتُلقى فيه الخطب، ثم تحوّل سريعًا إلى مركز لنشر المذهب الإسماعيلي الشيعي، حيث أُقيمت فيه حلقات تعليمية منتظمة، تُعد من أقدم صور التعليم المنهجي في المساجد الإسلامية. ومع سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس الهجري، دخل الأزهر مرحلة مفصلية، إذ أُوقف النشاط المذهبي الشيعي فيه وقد أوقفت صلاة الجمعة في الجامع الازهر لعقود طويليه تقترب من العشرة حتى ينسى المجتمع السني تأثير الفاطميين الاسماعيلية، في إطار سياسة إعادة مصر إلى المذهب السني، ثم استعاد الأزهر دوره العلمي، ولكن بوصفه مؤسسة سنية تُدرّس علوم الشريعة واللغة وفق المذاهب الأربعة.
وشهد الأزهر في العصر المملوكي ازدهارًا كبيرًا، سواء من حيث العمارة أو النشاط العلمي، فقد أُضيفت إليه الأروقة والمآذن، وأُلحقت به المدارس، وخصّصت له الأوقاف التي ضمنت استقلاله المالي، وأسهمت في استقطاب الطلاب من مختلف أقاليم العالم الإسلامي، من المغرب والأندلس إلى الحجاز وبلاد الشام واليمن، حتى ترسخ دوره بوصفه الجامعة الإسلامية الأهم

في ذلك العصر. ومع دخول مصر تحت الحكم العثماني، استمر الأزهر في أداء رسالته، وتعزز موقع علمائه بوصفهم ممثلين لصوت المجتمع، وكان لهم دور بارز في الحياة العامة، ولا سيما في مقاومة الحملة الفرنسية، حيث تحوّل الأزهر إلى مركز للحراك الشعبي والوطني.

وفي العصر الحديث، شهد الأزهر مراحل متعددة من التطوير والإصلاح، خاصة منذ القرن التاسع عشر، ثم مع القوانين المنظمة له في القرن العشرين، فتحوّل من مسجد جامع يعتمد على حلقات الدرس التقليدية إلى جامعة متكاملة تضم كليات متخصصة في العلوم الشرعية واللغة العربية، ثم توسعت لتشمل العلوم الإنسانية والطبيعية والطبية. ولهذا يُعد الأزهر اليوم من أقدم الجامعات المستمرة في العالم، ولا يزال يستقبل آلاف الطلاب الدوليين من شتى القارات، وهو ما يمنحه بعدًا عالميًا يتجاوز حدود مصر الجغرافية.

وفي هذا الإطار التاريخي، جاءت زيارتي للجامع الأزهر في يوم الاثنين الموافق ٥ يناير ٢٠٢٦، ثم تكررت الزيارة في يوم الجمعة ٩ يناير ٢٠٢٦، وقد حرصت في كلا اليومين على أداء صلاة العشاء في رحابه. إذ يتجلى في الأزهر ذلك المزيج الفريد بين السكينة الروحية والحركة العلمية الدائمة. ففي أروقته يجلس الطلاب من جنسيات متعددة، يدرسون في جامعة الأزهر، يتبادلون العلم بلغات ولهجات مختلفة، في مشهد يعكس عالمية هذه المؤسسة، ويجسّد رسالتها التي تجاوزت الزمان والمكان.

ومن الناحية المعمارية، يحمل الجامع الأزهر بصمات العصور التي مرّ بها، فتتجاور فيه العمارة الفاطمية مع الإضافات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، وتتعدد مآذنه التي أصبحت علامة مميزة في أفق القاهرة الإسلامية. وقد تعرّض الأزهر عبر تاريخه الطويل لعمليات تجديد وترميم متعددة، كان هدفها الحفاظ على هذا الصرح الديني والعلمي من دون المساس بهويته التاريخية. ويُعد من أبرز هذه التجديدات ما حظي به الجامع من دعم سخي من الملك سلمان بن عبدالعزيز، خادم الحرمين الشريفين، الذي أسهم في ترميم وتجديد الجامع الأزهر في إطار العلاقات التاريخية الوثيقة بين المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية. وقد زار الملك سلمان الجامع الأزهر خلال زيارته الرسمية لمصر، وذلك يوم

السبت الموافق ٩ أبريل ٢٠١٦، في زيارة حملت دلالات دينية وثقافية عميقة، وأكدت مكانة الأزهر في وجدان العالم الإسلامي.

زيارة ا الجامع الأزهر









رحلة مصر 2026

زيارتي لحي مسجد الحسين بين التاريخ والمعتقد والواقع الاجتماعي

زيارتي لحي مسجد الحسين بين التاريخ والمعتقد والواقع الاجتماعي

قمتُ بزيارة حي مسجد الحسين في القاهرة ويسمى بحي الحسين بوصفه أحد أكثر أحياء المدينة ازدحامًا بالمعاني المتداخلة بين التاريخ والدين والحياة الاجتماعية، فالمكان لا يمكن النظر إليه باعتباره مسجدًا فحسب، بل فضاءً حضريًا نابضًا بالحركة، تتقاطع فيه المعتقدات الشعبية مع النشاط التجاري والسياحي، وتتجاور فيه القداسة المتصوَّرة مع الحياة اليومية الصاخبة.

دخلتُ مسجد الحسين، وهو من المساجد المشهورة في الوجدان الشعبي المصري، ويضم ضريحًا يعتقد كثير من الناس أنه للإمام الحسين بن علي رضي الله عنه، حفيد النبي صلى الله عليه وسلم. غير أن هذا الاعتقاد، على شهرته وانتشاره، يخالف ما استقر عليه التحقيق التاريخي عند جمهور المؤرخين، الذين يؤكدون أن رأس الحسين رضي الله عنه لم يُدفن في القاهرة، وأن نسبته إلى هذا الموضع جاءت في سياق سياسي ودعائي في عصور لاحقة، ولا تستند إلى أدلة تاريخية قطعية. ومن هنا، فإن التعامل العلمي مع هذا الضريح يقتضي التمييز بين ما هو معتقد شعبي وما هو ثابت تاريخيًا.

ويُلاحظ في المسجد انتشار مظاهر عديدة من الممارسات التي تُعد من البدع، كالتبرك بالمكان على نحو غير مشروع، وطلب الحوائج من غير الله، وهي ممارسات لا تمتّ إلى المنهج الإسلامي الصحيح بصلة، وإن كانت متجذّرة في الثقافة الشعبية لدى فئات من الزائرين. ومع ذلك، يبقى المسجد ذاته معلمًا معماريًا وتاريخيًا، ارتبط اسمه بحب المسلمين لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو حبٌّ مشروع في أصله، وإن شابته في هذا الموضع صور من الغلو والمخالفة.

وخارج أسوار المسجد، يتكشف وجه آخر لحي الحسين، وجه الحياة الصاخبة التي لا تهدأ، فالمنطقة من أكثر مناطق القاهرة حيوية، إذ تمتد فيها الأسواق الشعبية المزدحمة مثل خان الخليلي ، وتتداخل الأزقة المليئة بالمحال التجارية، من باعة التحف والمنتجات التراثية إلى العطور والمشغولات اليدوية. كما تنتشر المقاهي والمطاعم التي يقصدها السياح والمصطافون، مصريون وأجانب، بحثًا عن تجربة القاهرة القديمة بطابعها الشعبي وروحها الشرقية، في مشهد يعكس قدرة المكان على الجمع بين الماضي والحاضر في آن واحد.

ويمتاز حي الحسين بقربه الشديد من الجامع الأزهر، إذ لا يفصل بينهما سوى شارع صغير، لكنه شارع يفصل رمزيًا بين عالمين مختلفين في الروح والمنهج، الأزهر بمكانته العلمية السنية العريقة، ومنهجه القائم على الاعتدال والانضباط العلمي، والحسين بما يحمله من كثافة شعبية وممارسات يغلب عليها الطابع العاطفي والوجداني. وهذا التجاور المكاني بين المسجدين يعكس جانبًا من التنوّع الديني والاجتماعي في القاهرة، حيث تتعايش أنماط متعددة من التدين في مساحة جغرافية واحدة.خرجتُ من حي الحسين وقد بدا لي المكان أشبه بلوحة مركّبة، فيها التاريخ والأسطورة، والعلم والوجدان، والتجارة والسياحة، والعبادة والمخالفة، وهي صورة تختزل جانبًا من تعقيد المدينة القديمة، التي لا تُقرأ من زاوية واحدة. فحي مسجد الحسين ليس مجرد موقع ديني، ولا مجرد سوق سياحي، بل مساحة حيّة تكشف كيف تتشكّل الذاكرة الشعبية، وكيف تستمر المعتقدات غير المحققة تاريخيًا، جنبًا إلى جنب مع حركة حياة لا تنقطع، في قلب القاهرة.



زيارتي لمسجد مسجد السلطان حسن ومدارسه بين التاريخ والعلم

زيارتي لمسجد مسجد السلطان حسن ومدارسه بين التاريخ والعلم

قمتُ بزيارة مسجد السلطان حسن يوم الخميس الموافق ٨ يناير ٢٠٢٦، وكانت الزيارة ضمن نطاق المنطقة الأثرية التي تضم المسجد ومسجد الرفاعي المقابل له، وهي منطقة يُشترط لدخولها الحصول على تذكرة موحّدة تُقدّر قيمتها بنحو ٢٨٠ جنيهًا مصريًا، وتشمل دخول المسجدين معًا. وقد أتاحت لي هذه الزيارة فرصة التأمل المتأني في واحد من أعظم الصروح المعمارية والتعليمية التي عرفتها القاهرة الإسلامية. ويُعد مسجد السلطان حسن أكثر من مجرد مسجد جامع، فهو في أصله مجمّع علمي متكامل أُنشئ في القرن الثامن الهجري ليكون مركزًا للتدريس إلى جانب كونه مكانًا للعبادة. وقد شُيّد المسجد في عهد السلطان حسن بن الناصر محمد بين عامي ٧٥٧ و٧٦٤هـ الموافق ١٣٥٦–١٣٦٣م، في فترة ازدهار العمارة المملوكية، وجاء تصميمه معبّرًا عن رؤية تعليمية واضحة، تقوم على جمع المذاهب الفقهية السنية الأربعة في مكان واحد، ضمن إطار معماري مهيب. وتجلّت هذه الرؤية في المدارس الأربع الملحقة بالمسجد، والتي صُممت كل واحدة منها لتدريس مذهب فقهي معيّن، الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي. وقد وُزعت هذه المدارس حول صحن المسجد في صورة إيوانات كبرى، لكل إيوان مدخله ومساحته المخصصة للتدريس، وكان الطلاب يجلسون فيها حول شيخ المذهب، في حلقات علمية منتظمة، تُدرّس فيها كتب الفقه وأصوله، إلى جانب علوم الحديث والتفسير واللغة العربية. وبهذا التنظيم، لم يكن المسجد مجرد مكان للصلاة، بل جامعة سنية متكاملة بمعايير عصرها، تعكس حرص الدولة المملوكية على ترسيخ التعدد المذهبي داخل الإطار السني، وتأكيد وحدة المرجعية الدينية مع احترام الاختلاف الفقهي.

وأثناء تجوالي داخل المسجد، كان من السهل ملاحظة هذا البعد التعليمي في تخطيط المكان، فالإيوانات الأربعة ليست عناصر زخرفية فحسب، بل فضاءات صُممت بعناية لتكون صالحة للتدريس والإقامة العلمية، بما تحمله من سعة وارتفاع وهيبة تساعد على بث روح الانضباط والوقار. كما أن الفصل الواضح بين الإيوانات يعكس استقلالية كل مدرسة مذهبية، مع بقائها جميعًا ضمن فضاء واحد جامع، وهو تصور معماري وفكري متقدم سبق كثيرًا من النماذج التعليمية اللاحقة. وتكامل هذا الدور التعليمي مع الوظيفة التعبدية للمسجد، حيث يتوسطه صحن واسع يُستخدم للصلاة والالتقاء، وتحيط به عناصر معمارية ضخمة

تفـرض عـلى الزائـر حالـة مـن الصمـت والتأمـل. وتشـير المصـادر إلى أن السـلطان نفسـه لم يُدفـن في المسـجد لكـن ولـداه قـد يرجـح دفنهـما في المسـجد وهنـاك ضريـح واللـه اعلـم اذا كان دفـن بـه احـد ام لا. واني أقـوم بزيـارة تلـك الأماكـن مـن اجـل التثقـف واتجنـب الصـلاة في المسـاجد التـي بهـا اضرحـة



زيارة سريعة الى الإسكندرية

زيارة سريعة الى الإسكندرية

في يوم الأربعاء الموافق ٧ يناير ٢٠٢٦ قمتُ بالذهاب إلى الإسكندرية ضمن قروبٍ سياحي يضم مشاركين من جنسيات مختلفة، في تجربةٍ منظمة جرى حجزها مسبقًا عبر أحد المواقع الإلكترونية المتخصصة في الرحلات السياحية. شملت الرحلة الانتقال من القاهرة والعودة في اليوم نفسه، حيث كان التجمع من فندق هيلتون رمسيس في تمام الساعة السابعة صباحًا، ثم الانطلاق شمالًا باتجاه ساحل البحر المتوسط. استغرقت الرحلة كاملة قرابة عشر ساعات بين انتقال وزيارات ميدانية، في حين تُقدَّر المسافة بالسيارة بين القاهرة والإسكندرية بنحو ثلاث ساعات تقريبًا. وكانت هذه الزيارة الثانية لي في حياتي، إذ زرتها قبل سنوات طويلة. وتُعد مدينة الإسكندرية، التي أسسها الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد، نافذة مصر التاريخية على البحر المتوسط، ومركزًا للتجارة والفكر والثقافة عبر قرون طويلة، ولا تزال تحتفظ بجزء من هذا الإرث في عمرانها، وكورنيشها، وموانئها، وأحيائها القديمة. وخلال الرحلة، كان واضحًا اهتمام السياح الأجانب بالطابع البحري للمدينة، وبحكاياتها التاريخية المرتبطة بالعالم اليوناني والروماني والإسلامي، وهو ما يجعلها محطة رئيسة في أي برنامج سياحي قادم من القاهرة.

بدأ البرنامج بزيارة مكتبة الإسكندرية، التي تمثل الامتداد الرمزي لأعظم مشروع معرفي في العالم القديم. فالمكتبة القديمة، التي تأسست في القرن الثالث قبل الميلاد في العصر البطلمي، كانت مركزًا عالميًا للعلوم والفلسفة والترجمة، وأسهمت في تشكيل العقل العلمي للحضارة الإنسانية. أما المكتبة الحديثة، التي افتُتحت عام ٢٠٠٢، فقد صُممت لتعيد للإسكندرية دورها الثقافي العالمي، جامعةً بين العمارة المعاصرة والرسالة المعرفية، ومؤكدة أن المدينة ما تزال قادرة على إنتاج المعنى، لا مجرد استهلاك الماضي. ولا يوجد شيء مميز في المكتبة سوى وضع تمثال بطليموس الأول، فرعون مصر بعد الاحتلال الإغريقي، في مدخل المكتبة، كما كان في السابق. ومن فضاء المعرفة انتقلتُ إلى عالم الطقوس الجنائزية بزيارة مقابر كوم الشقافة، التي تعود إلى القرن الثاني الميلادي، وتُعد مثالًا نادرًا على الامتزاج الحضاري. ففي هذا الموقع تتجاور الرموز المصرية القديمة مع الزخارف اليونانية والملابس الرومانية، في انعكاسٍ صادق لطبيعة الإسكندرية بوصفها مدينة كوزموبوليتانية، أي مدينة تقبل وتتعايش مع التعددية الثقافية منذ نشأتها. وقد شدني في المقابر الإغريقية في الدور السفلي، والمقابر الرومانية في الدور الأعلى، امتزاج النقوش والطقوس الرومانية مع الإغريقية، وتأثرها بالنقوش الفرعونية، مما يدل على تفاعل تلك الحضارات والأساطير وتأثيرها المتبادل.

بعد ذلك انتقلتُ إلى قلعة قايتباي، التي شُيّدت في القرن الخامس عشر الميلادي في عهد السلطان الأشرف قايتباي، فوق الموقع ذاته الذي كان يقوم عليه فنار الإسكندرية القديم. وقد جاءت القلعة في سياقٍ دفاعي لحماية السواحل المصرية من الأخطار البحرية، لتغدو اليوم رمزًا تاريخيًا يجمع بين الإرث الإسلامي والموقع البحري الفريد. وقد استُخدمت القلعة من قبل أطراف عدة غزت مصر، مثل الفرنسيين والإنجليز وغيرهم، وهي تطل مباشرة على بحر الإسكندرية الجميل.

وفي منتصف اليوم توقفتُ لتناول الغداء في مطعمٍ محلي، في استراحة قصيرة أتاحت ملامسة الإسكندرية المعاصرة وحياتها اليومية، قبل استكمال الجولة. ثم توجهتُ إلى قصر المنتزه، الذي يعود إلى أوائل القرن العشرين، حين اتخذته أسرة محمد علي مقرًا صيفيًا. ويعكس القصر مرحلة تاريخية حاولت فيها مصر التوفيق بين الطراز الأوروبي والهوية المحلية، وتحيط به حدائق واسعة تطل على البحر في مشهدٍ يجمع السياسة بالترف والجغرافيا. وهو القصر الذي شهد مغادرة الملك فاروق مصر بعد ثورة عام ١٩٥٢.ومن التاريخ الملكي إلى التراث الديني النصراني، زرتُ كاتدرائية مار مرقس من الخارج، والتي تُنسب إلى القديس مرقس، مؤسس الكنيسة القبطية في القرن الأول الميلادي، وتُعد من أقدم المراكز النصرانية في العالم، بما تحمله من دلالات دينية وتاريخية عميقة في مسار المدينة. وقد كانت الإجراءات الأمنية مشددة، لتزامن الزيارة مع احتفالات المصريين الأرثوذكس بميلاد المسيح بحسب اعتقادهم، إذ يرون أن ميلاده كان في بداية يناير، لا في نهاية ديسمبر كما هو الحال لدى الكاثوليك والبروتستانت، ولذلك آثرت عدم الدخول إلى الكنيسة.

غير أن برنامج الرحلة تضمّن التوقف عند موقع لم أرغب في زيارته، وهو مسجد أبي العباس المرسي، أحد أشهر المساجد في الإسكندرية من حيث الحضور الشعبي. ويضم المسجد ضريح أبي العباس المرسي، وهو شخصية صوفية أندلسية الأصل استقرت في الإسكندرية في القرن السابع الهجري، وأصبح له أتباع ومريدون، وتحوّل قبره مع الزمن إلى مزار يقصده الناس للتبرك والدعاء. ومن الناحية العلمية والمنهجية، فإن وجود الضريح داخل المسجد، وما يصاحبه من ممارسات شعبية، يُعد من البدع المخالفة للهدي الشرعي، لما يترتب عليه من تعظيم القبور وصرف بعض صور العبادة لغير الله، وهو ما جعلني أتحفظ على زيارة هذا الموقع رغم شهرته السياحية. ويحب كثير من المصريين أبا العباس المرسي، بل يغلون فيه، ولذلك لا يزال اسم «مرسي» شائعًا بين المصريين حتى اليوم. وبجوار مسجد أبي العباس المرسي يقع مسجد آخر يُعرف بمسجد الإمام البوصيري، ويضم قبر الشاعر محمد بن سعيد البوصيري، وهو

شاعر صوفي من القرن السابع الهجري، اشتهر بقصيدته المعروفة باسم «البُردة». ومن المهم هنا التمييز بين البوصيري الشاعر، وبين صاحب الحديث (شهاب الدين البوصيري)، إذ إن البوصيري ليس من المحدّثين ولا من علماء السنة، وإنما شاعر، وقد حظيت قصيدته بشهرة واسعة في العالم الإسلامي. غير أن قصيدة البردة، على الرغم من قيمتها الأدبية عند بعضهم، تتضمن عبارات غلوّ واضحة في حق النبي صلى الله عليه وسلم، تجاوزت حدّ المدح المشروع إلى معانٍ لا يقرّها المنهج العقدي الصحيح، وهو ما جعلها موضع نقد علمي عند عدد من أهل العلم عبر العصور.وتُظهر هذه المواقع، مسجد أبي العباس المرسي ومسجد البوصيري، كيف تحوّلت بعض الشخصيات الصوفية إلى رموز شعبية أُحيطت بهالة من التقديس، وأُنشئت حولها أضرحة ومساجد، في إطار عادة اجتماعية ودينية شاعت في فترات تاريخية سابقة، ولا تزال آثارها قائمة إلى اليوم. وهي عادة، وإن كانت متجذّرة في الثقافة الشعبية، تُعد من البدع التي انتقدها العلماء، لما فيها من مخالفة صريحة للتوحيد الخالص الذي جاء به الإسلام.وبينما كان بعض أفراد المجموعة السياحية ينظرون إلى هذه المساجد بوصفها معالم ثقافية أو معمارية، كان حضوري في الرحلة يفرض عليّ قراءة مختلفة، تميّز بين القيمة التاريخية أو السياحية للمكان، وبين الموقف العلمي الشرعي من الممارسات المرتبطة به. وقد بدا هذا التباين واضحًا في مثل هذه الرحلات المختلطة، حيث يلتقي السائح الغربي الباحث عن التجربة، مع الزائر المسلم الذي يحمل خلفية عقدية ومنهجية في تقييم الأماكن.

مدينة الأسكندرية

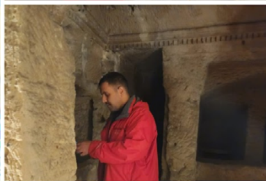












زيارتي لمسجد مسجد الرفاعي بين العمارة والتاريخ والعادة الاجتماعية

زيارتي لمسجد مسجد الرفاعي بين العمارة والتاريخ والعادة الاجتماعية

قمتُ بزيارة مسجد الرفاعي في القاهرة، وهو من المساجد التي يلفت حضورها البصري قبل الدخول إليها، إذ يقف قبالة مسجد السلطان حسن في مشهد معماري فريد يعكس تراكب العصور وتجاور الرموز الدينية والسياسية في قلب القاهرة التاريخية. الدخول إلى المسجد يضع الزائر مباشرة أمام فضاء مهيب، تتداخل فيه الزخارف الواسعة مع القباب والأعمدة، ويغلب عليه طابع الاحتفال بالسلطة والذاكرة أكثر من كونه مسجدًا تقليديًا للعبادة اليومية.

يرتبط مسجد الرفاعي ارتباطًا وثيقًا بتاريخ الأسرة العلوية نسبة الى الحاكم محمد علي والذي يعرف بمحمد علي باشا وعائلته التي حكمت مصر بعد الحملة الفرنسية بداية القرن التاسع عشر واستمرت حتى الانقلاب العسكري على الملك فاروق في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ويسميها البعض ثورة ولكنها ليست ثورة بل انقلاب عسكري على الملك الشرعي فاروق ، وقد اكتمل بناء المسجد في مطلع القرن العشرين ليكون مسجدًا ومدفنًا ملكيًا في آن واحد، وهو ما يفسر كثرة الأضرحة داخله. ومن أبرز من دُفنوا في المسجد الملك فؤاد الأول، والملك فاروق الأول، آخر ملوك مصر، إلى جانب عدد من أفراد الأسرة المالكة. كما يضم المسجد ضريح الخديوي إسماعيل، أحد أبرز حكّام مصر في القرن التاسع عشر، والذي ارتبط اسمه بمشروعات تحديث الدولة وبناء القاهرة الحديثة. ويضم المسجد كذلك قبر شاه إيران محمد رضا بهلوي، الذي توفي في المنفى ودُفن في القاهرة حيث ان زوجة الشاه من الاسرة العلوية وقد لاقى دفنه بمصر استياء بعض الإيرانيين وكان ذلك بعهد الرئيس السادات.

وتكشف هذه الأضرحة مجتمعة عن عادة اجتماعية ودينية كانت شائعة في مصر عبر قرون طويلة، وهي عادة دفن الشخصيات الكبرى من حكّام وعلماء وأعيان داخل المساجد أو في ملحقاتها، بوصف ذلك نوعًا من التكريم الرمزي، وربما بقصد تخليد الذكرى وربط الاسم بالمكان المقدس. غير أن هذه العادة، على الرغم من شيوعها التاريخي، تُعد من البدع المخالفة للهدي الشرعي الصحيح، لما يترتب عليها من مفاسد عقدية، أبرزها تعظيم القبور واتخاذ المساجد مواضع للدفن، وهو ما نهى عنه الإسلام صراحة. ومن الملاحظ، بحمد الله، أن هذه العادة قد تراجعت كثيرًا في القرن الأخير، وتوقفت في مصر ، مع ازدياد الوعي الشرعي. ومع ذلك، فإن آثار هذه الممارسة لا تزال قائمة في عدد من المساجد التاريخية، ومنها مسجد الرفاعي، بوصفها شواهد على مرحلة سابقة من التاريخ الديني والاجتماعي، لا بوصفها نموذجًا يُحتذى.

زيارتي لقصر استقبال ضيوف قناة السويس

زيارتي لقصر استقبال ضيوف قناة السويس

في يـوم الخميـس الموافـق ٨ ينايـر كانـت زيـارتي إلى فنـدق ماريـوت عمـرو الخيـام زيـارةً ذات طابـعٍ تاريخـي يتجـاوز حـدود المشـاهدة المعماريـة. فالمـكان في أصلـه ليـس فندقًـا عاديًـا، بـل قـصرٌ تاريخـي شـيّده الخديـوي إسـماعيل ليكـون مقـرًا لاسـتقبال كبـار ضيـوف مـصر مـن ملـوك وأمـراء وسـفراء العـالم خـلال احتفـالات افتتـاح قنـاة السـويس عـام ١٨٦٩. وقـد أراد الخديـوي مـن خـلال هـذا القـصر أن يقـدّم مـصر بوصفهـا دولـة حديثـة، قـادرة عـلى تنظيـم حـدث عالمـي يـوازي في رمزيتـه كـبرى المناسـبات الأوروبيـة في القـرن التاسـع عـشر. ولا تـزال ملامـح القـصر حتـى اليـوم شـاهدة عـلى تلـك المرحلـة؛ مـن الأسـقف المرسـومة يدويًـا، والثريـات الضخمـة، والقاعـات الفسـيحة التـي تعكـس تـرف البـلاط الخديـوي، قبـل أن يتحـول المبنـى في العـصر الحديـث إلى فنـدق عالمـي حافـظ عـلى جوهـره المعـماري والتاريخـي. والوقـوف في هـذه القاعـات يمنـح الزائـر إحساسًـا مباشرًا بـأن العـمارة هنـا لم تكـن غايـة جماليـة فحسـب، بـل أداة سياسـية ورسـالة حضاريـة.

ويرتبـط هـذا القـصر ارتباطًـا وثيقًـا بتاريـخ قنـاة السـويس، ذلـك المـشروع الـذي غـيّر خريطـة التجـارة العالميـة، لكنـه في الوقـت نفسـه شـكّل أحـد أكـثر الملفـات تعقيـدًا في التاريـخ الاقتصـادي والاجتماعـي المـصري الحديـث. ففكـرة ربـط البحريـن الأحمـر والمتوسـط ليسـت جديـدة، إذ راودت المصريـين منـذ العصـور القديمـة، إلا أن المـشروع الحديـث تبلـور في القـرن التاسـع عـشر حـين تبنـاه الفرنـسي فرديناند دي لسـبس، الـذي نجـح في تسـويقه سياسـيًا ودوليًـا، مسـتفيدًا مـن طمـوح الخديـوي إسـماعيل ورغبتـه في إدخـال مـصر نـادي الـدول الكـبرى. وقـد بـدأ حفـر القنـاة عـام ١٨٥٩ واسـتمر نحـو عـشر سـنوات، وشـارك في هـذا المـشروع مـا يُقـدَّر بنحـو مليـون إلى مليـون ونصـف عامـل مـصري، جـرى اسـتقدامهم مـن مختلـف الأقاليـم، وغالبًـا قـسرًا عـبر نظـام السُـخرة (نظـام السُّـخرة هـو نظـامُ عمـلٍ قـسريٍّ تُجـبر فيـه الدولـةُ أو السـلطةُ الحاكمـةُ الأفـرادَ عـلى العمـل دون اختيـارٍ حـرّ، وغالبًـا مـن دون أجـرٍ عـادل أو بأجـرٍ رمـزي، ولمـددٍ طويلـة، وتحـت ظـروفٍ شـاقّة، مـع غيـاب الحمايـة القانونيـة وحقـوق العامـل.). وفي فـترات الـذروة كان يعمـل في موقـع الحفـر عـشرات الآلاف في الوقـت نفسـه، في ظـروف بالغـة القسـوة، اتسـمت بشـدة العمـل، وسـوء التغذيـة، وانتشـار الأمـراض، وارتفـاع معـدلات الوفيـات. ولم يكـن الثمـن إنسـانيًا فقـط، بـل اقتصاديًـا واجتماعيًـا أيضًـا.

فقـد أسـهمت عمليـة الحفـر في تراجـع القطـاع الزراعـي المـصري خـلال تلـك السـنوات، إذ أُفرغـت القـرى مـن أعـداد كبـيرة مـن الفلاحـين الذيـن كانـوا يشـكّلون العمـود الفقـري للإنتـاج الزراعـي.

وأدّى ذلك إلى اضطراب المواسم الزراعية، ونقص الإنتاج، وإضعاف أحد أهم مصادر الدخل في الاقتصاد المصري آنذاك. وهكذا، بينما كانت القناة تُحفر لتسهيل التجارة العالمية، كان الداخل المصري يدفع ثمنًا باهظًا في الزراعة والإنسان معًا.

وعلى الرغم من الأهمية الاستراتيجية للقناة، فإن العائد الاقتصادي المباشر على مصر جاء محدودًا. فقبل حفر القناة، كانت التجارة العابرة تستفيد من الأراضي المصرية عبر النقل البري والنهري والتخزين والخدمات، وهو ما كان يدرّ أرباحًا للتجار المحليين. أما بعد الافتتاح، فقد انحصر الدور المصري إلى حدٍ كبير في تحصيل رسوم المرور، بينما ذهبت الأرباح الكبرى إلى الشركات الأجنبية والدول المسيطرة على الامتياز. وزادت الاحتفالات الباذخة، وتكاليف الحفر، ومشروعات التجميل العمراني – ومنها القصور – من عبء الديون التي أثقلت كاهل الخزانة المصرية. ومع تفاقم الأزمة المالية، اضطرت مصر إلى رهن وبيع أسهمها في قناة السويس للقوى الأجنبية، وهو ما شكّل مساسًا مباشرًا بالسيادة الوطنية، ومهّد لتزايد التدخل الأجنبي في الشأن المصري. ولم يُغلق هذا الملف إلا بعد عقود، حين أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة عام ١٩٥٦، وهو القرار الذي أدى إلى اندلاع العدوان الثلاثي، في واحدة من أبرز لحظات الصراع على السيادة في التاريخ المصري الحديث.

زيارة قصر الضيافة لضيوف افتتاح قناة السويس











رحلة مصر 2026

الجزء الثاني: مقالات في تاريخ مصر

- شخصيات وأحداث

الجزء الثاني: مقالات في تاريخ مصر – شخصيات وأحداث

يمثّل هذا الجزء الثاني من الكتاب مجموعةً من المقالات التاريخية التحليلية المستقلة التي تتناول شخصياتٍ وأحداثًا محورية في تاريخ مصر عبر عصور متباينة، تمتد من الحضارة المصرية القديمة إلى بدايات الدولة الحديثة. ويجدر التأكيد منذ البداية أن هذه المقالات غير مترابطة بنائيًا، ولا تقوم على تسلسل زمني واحد أو إطار سردي متصل، بل جُمعت في هذا الجزء لكونها تشترك في المجال العام نفسه، وهو تاريخ مصر، مع اختلاف موضوعاتها وزوايا معالجتها ومناهج قراءتها.ويهدف هذا الجزء إلى تقديم قراءات علمية مباشرة تقوم على التحليل والتفسير، لا على السرد الوصفي وحده، من خلال ربط الوقائع التاريخية بسياقاتها الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية، وإبراز التفاعلات المعقّدة التي أسهمت في تشكيل المسار التاريخي المصري، دون افتراض وحدة موضوعية أو ترابط سببي بين المقالات. فكل مقالة تمثل وحدة معرفية قائمة بذاتها، يمكن قراءتها بشكل مستقل عن غيرها، دون أن يخل ذلك بفهم محتواها أو أهدافها العلمية.

تنطلق مقالات هذا الجزء من منظور منهجي يرى أن دراسة التاريخ لا تكتمل بإعادة رواية الأحداث، بل تتطلب تفكيك البنى الفكرية والاجتماعية التي أنتجتها، وفهم الشخصيات التاريخية بوصفها نتاجًا لظروفها الزمنية. وفي هذا السياق، تتناول بعض المقالات قضايا عقدية وفكرية، مثل التحول الديني في مصر الفرعونية من خلال تجربة إخناتون، والتصورات المرتبطة بالحياة والموت كما تعكسها نصوص كتاب الموتى، ونشأة علم المصريات، وتطور اللغة القبطية بوصفها المرحلة الأخيرة من اللغة المصرية القديمة. وفي مقالات أخرى، يجري التركيز على شخصيات وأحداث سياسية واجتماعية في مصر الحديثة، دون ادعاء وجود خيط ناظم مباشر بينها.كما يضم هذا الجزء مقالات تحليلية عن شخصيات كان لها تأثير في لحظات تاريخية مختلفة، مثل الجبرتي، وعمر مكرم، وأنطوان كلوت، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، وأحمد عرابي، إضافة إلى مقالات تتناول أحداثًا مفصلية مثل مذبحة القلعة وحفر قناة السويس. وفي مقابل ذلك، تتناول مقالات أخرى أبعادًا ثقافية وحضارية، من بينها تاريخ الطلاب الدوليين في الأزهر، وتجربة ماريو روسي المعمارية، وتحليل توظيف نابليون بونابرت للرموز الدينية، وتجربة رفاعة الطهطاوي في الاحتكاك المبكر بالغرب، وصولًا إلى دراسة المقابر العمالية وبناء الهرم في سياق علم المصريات الحديث.

ويُشار إلى أن عددًا من مقالات هذا الجزء سبق نشره في صيغ أولية مستقلة قبل جمعها في هذا العمل. فقد نُشر مقال نابليون بونابرت والمولد النبوي، ومقال المقابر العمالية وبناء الهرم، ومقال رفاعة الطهطاوي في مرسيليا في صحيفة الوطن قبل أعوام عدة، كما نُشر موضوع الطلاب الدوليين في الأزهر عبر التاريخ ضمن إحدى الدراسات السابقة للمؤلف. وقد أُعيدت صياغة هذه المواد وتطويرها علميًا، دون السعي إلى دمجها في بنية مترابطة، بل مع الحفاظ على استقلالها الموضوعي والمنهجي.وعليه، فإن هذا الجزء يقدّم مجموعة مقالات غير مترابطة يجمعها الانتماء إلى تاريخ مصر بوصفه مجالًا للدراسة، لا بوصفه سردًا متصلًا.

إخناتون بين تعدد الآلهة ومحاولة توحيد العبادة
في ضوء قراءة زاهي حواس

إخناتون بين تعدد الآلهة ومحاولة توحيد العبادة في ضوء قراءة زاهي حواس

عرفت مصر الفرعونية عبر تاريخها الطويل منظومة دينية تعددية شديدة الثراء، لم تكن قائمة على التناقض بقدر ما كانت قائمة على التكامل، فقد آمن المصري القديم بتعدد الآلهة المرتبطة بالطبيعة والإنسان والكون والآخرة، آمون رمز الخلق والقوة الخفية، رع تجسيد الشمس والنور، أوزيريس سيد البعث والحساب، إيزيس رمز الأمومة والحماية، وحورس إله الملكية والنظام، وكانت هذه الآلهة تشكّل في مجموعها تصورًا كونيًا متوازنًا يفسر الوجود ويمنح الحياة معناها. ومع مرور الزمن، تحوّلت هذه المنظومة إلى قوة اجتماعية وسياسية، خاصة مع صعود كهنة آمون في طيبة، الذين راكموا نفوذًا دينيًا واقتصاديًا جعلهم شريكًا فعليًا للسلطة الملكية، بل منافسًا لها في بعض المراحل. وفي هذا السياق ظهر إخناتون، فرعون الأسرة الثامنة عشرة، بوصفه شخصية غير تقليدية كسرت استمرارية النسق الديني المصري، فقد وُلد باسم أمنحتب الرابع، وهو اسم يحمل دلالة صريحة على الإله آمون، لكنه ما لبث أن غيّره إلى إخناتون، أي "النافع لآتون"، في خطوة كشفت منذ وقت مبكر عن مشروع فكري وديني مختلف. لم يكن هذا التغيير في الاسم مجرد إجراء رمزي، بل كان إعلانًا عن تحوّل عقائدي شامل، حاول فيه إخناتون إعادة تعريف مفهوم الإله، وطبيعة العبادة، ودور الملك في العلاقة بين الإنسان والسماء.

وسعى إخناتون إلى نقل المجتمع المصري من تعدد الآلهة إلى التركيز على إله واحد هو آتون، قرص الشمس، بوصفه خالق الكون والكائنات، ومانح الحياة لكل البشر دون تمييز، ولم يكن آتون في فكره مجرد جرم سماوي، بل مظهرًا من مظاهر القدرة الإلهية المطلقة. وقد عبّر عن هذا التصور في نصوص دينية أبرزها ما يُعرف بنشيد آتون العظيم، الذي يصوّر الإله الواحد حاضرًا في كل تفاصيل الطبيعة، يمنح الحياة للنبات والإنسان والحيوان، ويرعى البشر جميعًا بلا وساطة كهنوتية. ومن هنا، فإن محاولة إخناتون لم تكن مجرد إصلاح ديني جزئي، بل ثورة فكرية أرادت تقويض احتكار الكهنة للقداسة، وإعادة توحيد السلطة الدينية والسياسية في شخص الفرعون.ولترسيخ هذه العقيدة الجديدة، اتخذ إخناتون قرارًا جذريًا بنقل العاصمة من طيبة، مركز عبادة آمون، إلى مدينة جديدة أسسها في وسط مصر عُرفت باسم أخيتاتون، وهي تل العمارنة حاليًا، وقد صُممت هذه المدينة لتكون فضاءً دينيًا خالصًا، بلا رموز تقليدية للآلهة القديمة، ومعابدها مفتوحة للشمس في انسجام كامل مع العقيدة الأتونية التي جعلت النور جوهر الوجود.

وقد انعكست هذه التحولات الدينية على الفن المصري، فظهر ما يُعرف بفن العمارنة، الذي كسر القواعد الصارمة للفن الكلاسيكي، ولم يعد يصوّر الملك في هيئة مثالية جامدة، بل قدّم إخناتون بملامح غير مألوفة، جسد نحيل، بطن بارزة، وجه طويل، ومشاهد عائلية حميمة تجمعه بزوجته نفرتيتي وبناته تحت أشعة آتون. هذا الأسلوب الفني الجديد، الذي كان في جوهره تعبيرًا رمزيًا عن فلسفة دينية وإنسانية مختلفة، أصبح لاحقًا مصدرًا لسوء الفهم والجدل حول شخصية إخناتون. فقد وُصف إخناتون في عدد من الدراسات الحديثة بأنه "الفرعون المخنث"، وذهب بعض علماء المصريات إلى الاعتقاد بأنه لم يكن مكتمل الذكورة، بل توسّع الجدل ليشمل آراء طبية افترضت إصابته بأمراض جينية أو هرمونية مثل مارفان أو فروليش، تؤدي إلى ظهور سمات أنثوية أو تشوّهات جسدية. والمفارقة أن هذه الفرضيات استندت في معظمها إلى قراءة التماثيل والنقوش، لا إلى دراسة علمية مباشرة لمومياء إخناتون. وفي هذا المسار، جاءت مقالة عالم المصريات الدكتور زاهي حواس المنشورة في صحيفة الشرق الأوسط عام ٢٠١٤ لتشكّل محطة فارقة في إعادة قراءة شخصية إخناتون. فقد أكّد حواس في تلك المقالة أن إخناتون كان موحّدًا بالفعل، وأنه تعرّض لافتراء تاريخي واسع، سواء في ما يتصل بعقيدته أو بصفاته الجسدية، مشددًا على أن اختزال تجربته في "عبادة الشمس" قراءة خاطئة، لأن إخناتون كان يؤمن بإله واحد خالق للكون كله، غير أنه اتخذ من الشمس رمزًا لقدرة هذا الإله، لا موضوعًا للعبادة بذاتها. كما رفض حواس وصف إخناتون بالمخنث أو المريض، معتبرًا أن هذه التوصيفات ناتجة عن سوء فهم الأسلوب الفني الأتوني. ويشير حواس، استنادًا إلى مشروع دراسة المومياوات الملكية، إلى أن تحاليل الحمض النووي أثبتت أن مومياء المقبرة رقم ٥٥ في وادي الملوك تعود بالفعل إلى إخناتون، وأن فحوص الأشعة المقطعية كشفت أنه كان رجلًا طبيعيًا مكتمل البنية، لا يعاني أي عيوب خلقية أو اضطرابات هرمونية أو جينية. كما أكدت الدراسات أنه كان مكتمل الذكورة، بدليل إنجابه ست بنات من زوجته نفرتيتي، إضافة إلى إنجابه ذكرًا واحدًا على الأقل من زوجة أخرى، وهو الذي تولّى الحكم لاحقًا باسم توت عنخ آمون. وتشير النتائج كذلك إلى أن وفاة إخناتون كانت طبيعية، وأنه عاش حتى سن متقدمة تجاوزت الستين عامًا، وهو ما ينقض صورة الحاكم المريض أو المختل التي شاعت عنه.

ويخلص حواس في مقالته إلى أن ما ظهر في تماثيل ولوحات إخناتون لم يكن وصفًا جسديًا حرفيًا، بل تعبيرًا فنيًا مقصودًا عن الديانة الأتونية، التي سعت إلى كسر القوالب القديمة،

وإظهار الملك في صورة إنسان قريب من الإله الواحد، لا كائن أسطوري متعالٍ. ومن ثم، فإن إخناتون لم يكن نبيًا ولا مختلًا عقليًا ولا فرعونًا منحرفًا، بل مفكرًا وحاكمًا حاول أن يقود ثورة دينية وفكرية في مجتمع شديد التمسك بتقاليده (حوس, ٢٠١٤).

كتاب الموتى

كتاب الموتى

كان اهتمام المصريين القدماء بالحياة الأبدية، أو الحياة الآخرة، من أبرز سمات عقيدتهم؛ ولعل أكثر ما خلّفوه من آثار يرتبط بهذه الفكرة هو المقابر. فالأهرامات في جوهرها مقابر لملوك مصر، كما أن المقابر وزخارفها ورسوماتها لا تعني بالضرورة تصويرًا دقيقًا لما كان يعيشه الملك أو الوجيه في الدنيا، بل تعكس في كثير من الأحيان ما كان يتخيله أو يتمناه للحياة الآخرة. وقد اشتهر المصريون القدماء بعلم تحنيط الجثث، وهناك متحف خاص بالمومياوات في منطقة الفسطاط سبق أن زرته عام ٢٠٢١. ومن أهم ما أولاه المصريون القدماء عناية كبيرة الطقوسُ الجنائزية، حيث ارتبطت لديهم بمنظومة عقدية متكاملة. وقد اكتُشف كتاب كان يستخدمه المصريون القدماء في الجنائز، وكان من الضروري – بحسب اعتقادهم – الإحاطة بتفاصيله قبل الوفاة.

يُعَدّ كتاب الموتى من أكثر النصوص الدينية والجنائزية شهرةً في تاريخ الحضارة المصرية القديمة، ليس بسبب اسمه المثير فحسب، بل لما يحمله من دلالات عميقة عن رؤية المصريين القدماء للحياة والموت والخلود. فالكتاب لا يتناول الموت بوصفه نهاية، وإنما يقدّمه باعتباره مرحلة انتقالية ضمن مسار كوني متكامل، تبدأ فيه رحلة الروح نحو العالم الآخر، حيث الحساب والبعث والحياة الأبدية. ويرجع تاريخ تدوين كتاب الموتى إلى عصور مختلفة من التاريخ المصري القديم، إلا أن شكله الأشهر تبلور خلال عصر الدولة الحديثة، تقريبًا منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد. ويُعد امتدادًا لنصوص جنائزية أقدم، مثل «نصوص الأهرام» التي ظهرت في الدولة القديمة، و«نصوص التوابيت» التي انتشرت في الدولة الوسطى. ومع تطور الفكر الديني والاجتماعي، انتقل هذا التراث من كونه حكرًا على الملوك والنخبة إلى نصوص أصبحت في متناول شرائح أوسع من المجتمع، وفق القدرة المادية لصاحبها. كتاب الموتى ليس كتابًا بالمعنى التقليدي، بل مجموعة من التعاويذ والصلوات والإرشادات، يصل عددها إلى نحو مئتي تعويذة، تختلف من نسخة إلى أخرى. وكانت هذه النصوص تُكتب عادةً على لفائف من ورق البردي، وتُدفن مع المتوفى، أو تُنقش على جدران المقابر والتوابيت. ولم يكن هناك ترتيب موحّد للتعاويذ، بل كان اختيارها وتنظيمها يخضع لرغبة الأسرة وإمكاناتها، مما جعل كل نسخة من كتاب الموتى فريدة في بنيتها.

تكمن أهمية كتاب الموتى في كونه مرآة صادقة للعقيدة المصرية القديمة بشأن الحياة الأخرى. فقد آمن المصريون بأن الروح لا تنعم بالخلود إلا إذا اجتازت محكمة الآخرة، التي يرأسها الإله أوزيريس، ويشارك فيها اثنان وأربعون قاضيًا يمثلون القيم الأخلاقية الكونية. ويُصوّر الكتاب مشهد وزن القلب بوصفه اللحظة الحاسمة في مصير الإنسان، حيث يُوزن قلب المتوفى مقابل ريشة «ماعت»، رمز الحق والعدل. فإذا تساويا نجا الإنسان ونال الخلود، وإن اختل الميزان التهم الوحش «عممت» القلب، فانتهت الروح إلى العدم. ولا يقتصر دور كتاب الموتى على الجانب الطقوسي، بل يحمل في طياته ميثاقًا أخلاقيًا متقدمًا. فالتعاويذ التي يتلوها المتوفى أمام القضاة تتضمن ما يُعرف بـ الاعتراف السلبي، حيث يعلن أنه لم يسرق، ولم يقتل، ولم يظلم، ولم يعتدِ على حقوق الآخرين. وهذا يعكس بوضوح أن الأخلاق في الحضارة المصرية لم تكن مفصولة عن الدين، بل كانت شرطًا أساسيًا للنجاة في الدنيا والآخرة. ومن الناحية التاريخية، يُعد كتاب الموتى مصدرًا بالغ الأهمية لفهم البنية الفكرية والدينية والاجتماعية لمصر القديمة. فهو يكشف عن تصور متكامل للكون، والعلاقة بين الإنسان والآلهة، ومكانة العدالة والنظام في الحياة اليومية. كما يقدّم للباحثين مادة غنية لدراسة اللغة المصرية القديمة، خاصة في صيغها الهيروغليفية والهيراطيقية، إلى جانب تتبع تطور الفن الجنائزي، إذ زُيّنت برديات الكتاب برسوم دقيقة ذات رمزية عالية. وقد أسهم اكتشاف عدد كبير من نسخ كتاب الموتى في المتاحف العالمية في تعميق فهمنا للحضارة المصرية، ومن أشهرها (بردية آني) المحفوظة في المتحف البريطاني، والتي تُعد نموذجًا متكاملًا من حيث النص والزخرفة. كما أن فك رموز اللغة المصرية القديمة في القرن التاسع عشر أتاح قراءة هذه النصوص قراءة علمية، وأخرجها من إطار الغموض والأسطورة إلى فضاء الدراسة الأكاديمية المقارنة (الموسوعة الحرة, ٢٠٢٦; حبيب, ٢٠٢٢).

علم المصريات

علم المصريات

يُعَدّ علمُ المصريات أحدَ أهم فروع الدراسات الإنسانية التي نشأت لفهم واحدة من أقدم وأعظم الحضارات في التاريخ الإنساني، وهي الحضارة المصرية القديمة. ويُعنى هذا العلم بدراسة تاريخ مصر القديم، ولغتها، وديانتها، وفنونها، ونُظمها الاجتماعية والسياسية، من خلال ما خلّفته من آثار مادية ونصوص مكتوبة. ولم يكن ظهور علم المصريات حدثًا عابرًا، بل جاء نتيجة تراكم معرفي طويل، وفضول إنساني عميق لفهم سرّ حضارة استمر عطاؤها آلاف السنين.

يرتبط الميلاد الحقيقي لعلم المصريات ارتباطًا وثيقًا بفك رموز اللغة المصرية القديمة، وتحديدًا الكتابة الهيروغليفية، التي ظلّت لغزًا غامضًا حتى مطلع القرن التاسع عشر. وقد شكّل اكتشاف حجر رشيد عام ١٧٩٩م نقطة تحوّل مفصلية في علم المصريات، إذ يُعَدّ حجر رشيد من أعظم الاكتشافات الأثرية في تاريخ الإنسانية. فقد اكتُشف عام ١٧٩٩م في مدينة رشيد شمال دلتا مصر أثناء الحملة الفرنسية، وهو عبارة عن لوحة من حجر الجرانوديوريت نُقش عليها نص واحد بثلاث لغات مختلفة هي: الهيروغليفية، والديموطيقية، واليونانية. وقد صدر هذا النص في صورة مرسوم ملكي يعود إلى عام ١٩٦ قبل الميلاد في عهد الملك بطليموس الخامس، ويتضمن قرارات دينية وإدارية موجّهة للكهنة، وقد كُتب بهذه اللغات الثلاث ليكون مفهومًا لمختلف فئات المجتمع آنذاك. غير أن أهميته التاريخية الكبرى تجلّت في كونه المفتاح الذي مكّن العلماء من فك رموز اللغة المصرية القديمة، بعدما قارنوا بين النص اليوناني المعروف والنصين المصريين، وهو ما تُوِّج عام ١٨٢٢م بنجاح العالم الفرنسي جان-فرانسوا شامبليون في قراءة الهيروغليفية قراءة علمية صحيحة، ففتح بذلك بابًا واسعًا لفهم الحضارة المصرية من مصادرها الأصلية بعد قرون طويلة من الغموض. وانتقل التاريخ المصري القديم من دائرة الأسطورة والتأويل إلى مجال البحث العلمي الدقيق. ويُحفظ حجر رشيد اليوم في المتحف البريطاني في لندن منذ أوائل القرن التاسع عشر، حيث لا يزال معروضًا حتى الآن، وسط مطالبات مصرية متكررة باستعادته.

قبل هذا الاكتشاف، كانت معرفة الأوروبيين بمصر القديمة تعتمد على روايات المؤرخين الإغريق والرومان، مثل هيرودوت وسترابو، وهي روايات امتزج فيها الوصف بالخيال والأسطورة. أما بعد شامبليون، فقد أصبح بالإمكان قراءة النصوص المصرية كما كتبها أصحابها، وفهم رؤيتهم للعالم والحياة والموت، بعيدًا عن التأويلات الخارجية. ومن هنا انتقل علم المصريات من مرحلة الإعجاب الرومانسي بالحضارة المصرية إلى مرحلة البحث العلمي المنظّم.

شهد علم المصريات تطورًا كبيرًا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث أُرست مناهجه العلمية، وتوسّعت مجالاته البحثية. فلم يعد مقتصرًا على دراسة الملوك والأهرامات والمعابد، بل شمل الحياة اليومية، والاقتصاد، والطب، والتعليم، والمرأة، والطفل، والطبقات الاجتماعية المختلفة. كما أصبح علمًا متعدد التخصصات، يستفيد من علوم الآثار، والأنثروبولوجيا، واللغويات، والكيمياء، والفيزياء، وتقنيات التصوير الحديثة.

وتكمن أهمية علم المصريات في كونه مفتاحًا لفهم تطور الفكر الإنساني المبكر. فالحضارة المصرية لم تكن مجرد حضارة معمارية عظيمة، بل قدّمت نظمًا متقدمة في الإدارة والحكم، وطرحت تصورات فلسفية وأخلاقية عميقة حول العدالة والنظام، تمثلت في مفهوم ماعت وهو مفهوم مركزي يرمز إلى الحقيقة، التوازن، النظام، العدالة، القانون، والأخلاق الكونية والاجتماعية، وتجسدت كإلهة تحمل ريشة نعام، تمثل مبادئ النظام ضد الفوضى. كما أسهمت في تطور العلوم، مثل الطب والهندسة والفلك، وأسست لتقاليد دينية أثّرت في حضارات لاحقة داخل حوض البحر المتوسط وخارجه. كما أسهم علم المصريات في تصحيح كثير من الصور النمطية عن مصر القديمة، التي اختزلتها أحيانًا في الطقوس الجنائزية والتحنيط. فقد أظهرت الدراسات الحديثة أن المصري القديم كان شديد التعلّق بالحياة، وأن اهتمامه بالموت لم يكن هروبًا منها، بل تعبيرًا عن إيمانه بالاستمرارية والخلود. وهذا الفهم العميق لا يمكن الوصول إليه إلا عبر قراءة النصوص الأصلية في سياقها الثقافي والحضاري.

وفي العصر الحديث، برز عدد من علماء المصريات الذين أسهموا في تقريب هذا العلم إلى الجمهور العام، ومن أبرزهم العالم المصري زاهي حواس، الذي لعب دورًا مهمًا في التعريف

بالآثـار المصريـة عربيًـا وعالميًـا، والدفـاع عـن الـتراث الحضـاري المـصري، وإبـراز البعـد العلمـي والإنسـاني لعلـم المصريـات. وقـد سـاعدت وسـائل الإعـلام والمعـارض الدوليـة عـلى جعـل هـذا العلـم أكـثر حضـورًا في الوعـي العـام، بعـد أن كان حكـرًا عـلى الأوسـاط الأكاديميـة، حيـث إن كثـيرًا مـن الأفـلام الوثائقيـة وكذلـك السـينمائية ركـزت عـلى الآثـار الفرعونيـة، كونهـا تجلـب الدهشـة والغمـوض في الوقـت نفسـه، إذ إن كثـيرًا مـن الألغـاز لم تُحـل لتفسـير الـتراث المـصري. ومـع التقـدم التقنـي، دخـل علـم المصريـات مرحلـة جديـدة، حيـث أُعيـد فحـص المومياوات باسـتخدام الأشـعة المقطعيـة، ودُرسـت الألـوان والنقـوش بوسـائل رقميـة متقدمـة، وأُعيـد بنـاء المـدن والمعابـد افتراضيًـا. وقـد مكّنـت هـذه التقنيـات الباحثـين مـن طـرح أسـئلة جديـدة، وتقديـم إجابـات أكـثر دقـة، دون الإضرار بالآثـار الأصليـة(Oakes, ٢٠٠١;Bassir, ٢٠٢٣). وقـد يكـون مـن أهـم مسـاهمات العلـوم الحديثـة فحـص الحمـض النـووي للملـك تـوت عنـخ آمـون، والـذي أظهـر أن لديـه العديـد مـن التحديـات الحركيـة، وقـد أُفـرد لـه ولمقتنياتـه جنـاح كبـير في المتحـف المـصري الجديـد الـذي افتُتـح نهايـة عـام ٢٠٢٥(الموسـعة الحـرة, ٢٠٢٦).

اللغة القبطية

تُعد اللغة القبطية المرحلة الأخيرة من تطور اللغة المصرية القديمة، وتمثل حلقة وصل تاريخية ولغوية بين حضارة مصر الفرعونية والعصور اللاحقة، وصولًا إلى العصر المسيحي ثم الإسلامي. ولا يمكن فهم اللغة القبطية بمعزل عن السياق الحضاري والديني لمصر، إذ ارتبط ظهورها وانتشارها بتحولات ثقافية عميقة، كان من أبرزها انتشار النصرانية في مصر منذ القرون الأولى للميلاد. وتاريخيا, مرت اللغة المصرية بعدة مراحل تطورية معروفة في الدراسات اللغوية، تبدأ بالمصرية القديمة التي ظهرت في النقوش الهيروغليفية، ثم المصرية الوسطى التي عُدت اللغة الكلاسيكية للأدب الديني، تلتها المصرية المتأخرة، ثم الديموطيقية التي استُخدمت في الحياة اليومية والمعاملات. ومع دخول مصر العصر الروماني وانتشار المسيحية، ظهرت اللغة القبطية بوصفها الشكل الأخير المكتوب للغة المصرية، وقد بدأ استخدامها على نطاق واسع منذ القرن الثالث الميلادي. وتتميز اللغة القبطية بأنها كُتبت أساسًا بالحروف اليونانية، مع إضافة عدد من الحروف المأخوذة من الخط الديموطيقي لتمثيل أصوات مصرية لا وجود لها في اليونانية. ويعكس هذا النظام الكتابي طبيعة المرحلة التاريخية التي نشأت فيها القبطية، حيث كانت اليونانية لغة الثقافة والإدارة في مصر الرومانية، في حين

ظلت المصرية لغة الشعب. ومن ثم جاءت القبطية تعبيرًا عن تفاعل لغوي وثقافي بين الموروث المصري القديم والتأثير الهلنستي.

من حيث البنية اللغوية، تنتمي القبطية إلى العائلة الأفروآسيوية، وتحتفظ بخصائص أساسية مشتركة مع اللغات المصرية السابقة، مثل نظام الجذور، وبنية الجملة، واستخدام أدوات التعريف. إلا أنها، في الوقت ذاته، تُظهر تطورًا واضحًا في النظام الصوتي والنحوي، ما يجعلها أكثر قربًا من اللغات الحية من حيث سهولة التحليل والدراسة مقارنة بالمراحل الأقدم من المصرية التي اعتمدت على أنظمة كتابية رمزية معقدة. وقد لعبت اللغة القبطية دورًا محوريًا في التاريخ الديني لمصر، إذ أصبحت اللغة الأساسية للنصوص المسيحية المبكرة، بما في ذلك ترجمات الكتاب المقدس، والكتابات اللاهوتية، وسير الشهداء، والنصوص الطقسية. وأسهم هذا الدور في حفظ القبطية مكتوبة على نطاق واسع، في وقت كانت فيه اللغات المصرية السابقة قد اندثرت كلغات حية. كما أن اعتماد الكنيسة القبطية على هذه اللغة في صلواتها وطقوسها ساعد على استمرارها، ولو في إطار ديني محدود. ومن الخصائص اللافتة في اللغة القبطية تعدد لهجاتها، وأشهرها اللهجة الصعيدية، التي تُعد أقدم اللهجات وأكثرها انتشارًا في النصوص المبكرة، واللهجة البحيرية التي أصبحت لاحقًا اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية. ويعكس هذا التعدد اللهجي التنوع الجغرافي والثقافي داخل المجتمع المصري آنذاك، كما يقدّم للباحثين مادة غنية لدراسة التطور الداخلي للغة. ومع دخول مصر العصر الإسلامي منذ القرن السابع الميلادي، بدأت اللغة العربية تحل تدريجيًا محل القبطية في الإدارة والحياة العامة. ومع مرور الزمن تراجع استخدام القبطية كلغة تخاطب يومي، لكنها لم تختفِ تمامًا، بل استمرت كلغة دينية وطقسية داخل الكنيسة القبطية. كما تركت أثرًا واضحًا في اللهجة المصرية العامية، إذ لا تزال بعض المفردات ذات الأصل القبطي مستخدمة حتى اليوم، خاصة في مجالات الزراعة والحياة اليومية (الموسوعة الحرة, ٢٠٢٦).

مذبحة القلعة



تُعد مذبحة القلعة واحدة من أكثر الأحداث دلالةً في التاريخ المصري الحديث، إذ شكّلت لحظة فاصلة أنهت عصر المماليك وفتحت الطريق أمام ترسيخ حكم محمد علي باشا وبناء الدولة المركزية الحديثة. وقعت هذه الحادثة في قلعة صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة عام ١٨١١م، في سياق سياسي معقّد اتسم بالصراع على السلطة بين الوالي العثماني محمد علي وبقايا القوى المملوكية التي ظلت، رغم تراجع نفوذها، تشكّل تهديدًا حقيقيًا لاستقرار الحكم. و جاءت المذبحة في لحظة كان فيها محمد علي يسعى إلى تثبيت أركان سلطته بعد سنوات من الاضطراب أعقبت خروج الحملة الفرنسية، وتنازع النفوذ بين العثمانيين والمماليك والزعامات المحلية. ورغم محاولات التفاهم المؤقتة، ظل المماليك يحتفظون بقوة عسكرية ونفوذ اجتماعي واقتصادي، جعلهم في نظر محمد علي عقبة لا يمكن تجاوزها بالإصلاح التدريجي أو التسويات السياسية. وقد أدرك الوالي أن مشروعه لبناء جيش حديث وإدارة مركزية لن يكتمل في ظل وجود قوة منافسة قادرة على تقويضه في أي لحظة.

استغل محمد علي مناسبة رسمية لتحقيق هدفه، فدعا كبار أمراء المماليك إلى احتفال في القلعة بمناسبة خروج حملة عسكرية بقيادة ابنه طوسون باشا إلى الحجاز. لبّى المماليك الدعوة مطمئنين إلى ما أُظهر لهم من مظاهر التكريم، ودخلوا القلعة في موكب احتفالي يعكس مكانتهم التقليدية. وما إن اكتمل دخولهم الممر الضيق المؤدي إلى ساحة القلعة، حتى أُغلقت الأبواب عليهم، وبدأ الجنود في إطلاق النار، لتتحول المناسبة إلى مجزرة أودت بحياة معظم قادة المماليك في وقت قصير. ولم تكن مذبحة القلعة فعلًا عشوائيًا أو انفعالًا آنيًا، بل عملية سياسية محسوبة هدفت إلى القضاء النهائي على الطبقة المملوكية بوصفها قوة حاكمة. وقد تبعت المذبحة حملة واسعة لتعقّب من تبقّى من المماليك في القاهرة والأقاليم، ما أنهى عمليًا وجودهم السياسي والعسكري في مصر بعد قرون من السيطرة. وبهذا الحدث، انتقلت مصر من نظام حكم قائم على تعدد مراكز القوة إلى سلطة مركزية صارمة تحت يد محمد علي.

أثارت المذبحة ردود فعل متباينة في المجتمع المصري. فمن جهة، ساد الخوف والدهشة من قسوة الأسلوب، ومن جهة أخرى، نظر كثيرون إلى الحدث بوصفه نهاية لمرحلة طويلة من الفوضى والصراعات التي ارتبطت بالحكم المملوكي. وقد مكّن هذا التحول محمد علي من تنفيذ إصلاحاته في الجيش والاقتصاد والإدارة والتعليم، دون منافسة داخلية مؤثرة، وإن كان ذلك على حساب استخدام العنف السياسي بوصفه أداة للحسم. وتكمن أهمية مذبحة القلعة في كونها لحظة تأسيسية في تاريخ الدولة المصرية الحديثة، إذ جسّدت الانتقال من نظام تقليدي إلى حكم مركزي قوي يعتمد على الجيش النظامي والمؤسسات. وهي، في الوقت ذاته، تطرح أسئلة تاريخية وأخلاقية حول العلاقة بين بناء الدولة واستخدام القوة، وحدود الشرعية في لحظات التحول الكبرى. ولهذا بقيت مذبحة القلعة حاضرة في الذاكرة التاريخية المصرية، لا بوصفها حادثة دموية فحسب، بل باعتبارها نقطة انعطاف حاسمة أعادت تشكيل مسار الحكم والسياسة في مصر خلال القرن التاسع عشر (يوسف, ٢٠١٦)

مؤرخ مصر الحديثة الجبرتي

مؤرخ مصر الحديثة الجبرتي

يُعد عبدالرحمن الجبرتي من أبرز مؤرخي مصر في العصر العثماني المتأخر، وأحد أهم الشهود الذين نقلوا بدقة ووعي تحولات المجتمع المصري في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. وقد وُلد عبدالرحمن بن حسن الجبرتي في القاهرة عام ١٧٥٣م، ونشأ في أسرة علمية عُرفت بالعلم والاشتغال بالفقه والحديث، الأمر الذي أتاح له منذ صغره بيئة معرفية راسخة, كما تلقّى تعليمه في الأزهر الشريف، حيث درس العلوم الشرعية واللغوية، وتكوّن وعيه التاريخي والنقدي الذي سيظهر لاحقًا في كتاباته بأسلوب فريد يجمع بين السرد الدقيق والتحليل العميق. واشتهر الجبرتي في التاريخ المصري بوصفه المؤرخ الأهم للحملة الفرنسية على مصر وما تلاها من أحداث سياسية واجتماعية جسيمة. فقد عاصر تلك المرحلة المضطربة، ودوّن تفاصيلها يومًا بيوم، مسجّلًا الوقائع من منظور عالم أزهري شاهد على انهيار نظام قديم وبداية تشكّل واقع جديد. وتُعد مؤلفاته، وفي مقدمتها كتابه الشهير (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)، من أثمن المصادر التاريخية لتلك الحقبة، لما تتميز به من شمول ودقة وجرأة في الوصف.

لا تقتصر أهمية الجبرتي على كونه ناقلًا للأحداث، بل تتجلى في قدرته على تفسير ما جرى وتحليل أسبابه ونتائجه. فقد قدّم صورة نقدية للمجتمع المصري، متوقفًا عند مظاهر الفساد الإداري، وتدهور الأحوال الاقتصادية، وضعف الحكم العثماني، دون أن يغفل دور العلماء والعامة في مقاومة الظلم والاحتلال. وعند حديثه عن الفرنسيين، لم يكتفِ بإدانة الغزو، بل سجّل بدهشة ووعي مظاهر التقدم العلمي والتنظيمي لديهم، وهو ما يكشف عن عقلية منفتحة قادرة على الملاحظة والمقارنة، لا مجرد الرفض المطلق. كما اشتهر الجبرتي بأسلوبه السردي المتميز، الذي جمع بين اللغة العربية الكلاسيكية وروح اليوميات الحية، فجاءت كتاباته نابضة بالتفاصيل الإنسانية، تعكس حياة الناس في الأسواق والمساجد، ومشاعر الخوف والأمل، وتقلبات السياسة، وتأثير الأحداث الكبرى في تفاصيل الحياة اليومية. وقد منح هذا الأسلوب أعماله قيمة أدبية إلى جانب قيمتها التاريخية، وجعلها مصدرًا لا غنى عنه للباحثين في التاريخ والاجتماع والثقافة.

سياسيًا وفكريًا، مثّل الجبرتي نموذج العالم الذي لم ينفصل عن مجتمعه، بل انخرط في همومه وسجّل تحوّلاته بوعي ناقد. وقد اتخذ موقفًا حذرًا من صعود محمد علي باشا، مسجّلًا بإعجاب من جهة قدرته على فرض النظام وبناء الدولة، وبقلق من جهة أخرى من مظاهر الاستبداد وتراجع دور العلماء. ويعكس هذا التوازن قدرة الجبرتي على قراءة التاريخ بوصفه مسارًا معقّدًا لا يخلو من التناقضات. وقد توفي عبدالرحمن الجبرتي في القاهرة عام ١٨٢٥م، بعد حياة حافلة بالعلم والتدوين والمشاهدة الدقيقة. وتكمن مكانته في التاريخ المصري في كونه ذاكرة عصر كامل، وصوتًا علميًا وثّق لحظة انتقالية حاسمة من تاريخ مصر. ولم يكن مجرد مؤرخ يسرد الوقائع، بل شاهدًا ناقدًا أسهمت كتاباته في تشكيل فهمنا الحديث لتلك المرحلة، وجعلت من الجبرتي أحد أعمدة الكتابة التاريخية العربية، ومرجعًا لا غنى عنه لكل من يسعى إلى فهم مصر في زمن التحولات الكبرى (الموسوعة الحرة, ٢٠٢٦)

أنطوان كلوت وإرساء التعليم الطبي النظامي في مصر الحديثة

أنطوان كلوت وإرساء التعليم الطبي النظامي في مصر الحديثة



كلوت بك في زي الجيش المصري يدرّس أول دروس التشريح الحديث في أبو زعبل في 20 يونيو 1829. الدرس حضره بعض شيوخ الأزهر (موسوعة المعرفة, 2026).

يُعَدّ أنطوان كلوت، المعروف في التاريخ المصري باسم كلوت بك، من أبرز الشخصيات الأوروبية التي أسهمت إسهامًا جوهريًا في تأسيس الطب الحديث في مصر خلال القرن التاسع عشر، وكان لجهوده أثر بالغ في تحديث المنظومة الصحية والتعليم الطبي في عهد محمد علي باشا. وُلد أنطوان بارتيليمي كلوت في مدينة غرونوبل بفرنسا عام ١٧٩٣م، ونشأ في بيئة علمية أتاحت له دراسة الطب والجراحة في فرنسا، في فترة كانت تشهد تطورًا ملحوظًا في العلوم الطبية الأوروبية. وبعد تخرجه، عمل في عدد من المستشفيات، واكتسب خبرة عملية واسعة في الجراحة والتنظيم الصحي. وقد جاء أنطوان كلوت إلى مصر عام ١٨٢٥م بدعوة

مـن محمـد عـلي باشـا، في إطـار مشروعـه الطمـوح لتحديـث الدولـة المصريـة وبنـاء مؤسسـاتها العسـكرية والمدنيـة عـلى أسـس علميـة حديثـة. وقـد أدرك محمـد عـلي أهميـة الطـب الحديـث في دعـم الجيـش وبنـاء دولـة قويـة، فأسـند إلى كلـوت مهمـة تنظيـم الخدمـات الطبيـة للجيـش المـصري. ومنـذ وصولـه، بـدأ كلـوت بـك في وضـع أسـس جديـدة للطـب في مـصر، تختلـف جذريًـا عـما كان سـائدًا مـن ممارسـات تقليديـة تعتمـد عـلى الخـبرة الشـعبية أكـثر مـن المعرفـة العلميـة. ويُعـد تأسـيس مدرسـة الطـب في أبـو زعبـل عـام ١٨٢٧م أبـرز إنجـازات أنطـوان كلـوت في مـصر، حيـث أنشـأ أول مؤسسـة تعليميـة طبيـة حديثـة تعتمـد عـلى المناهـج العلميـة الأوروبيـة، وتقـوم عـلى التعليـم النظامـي والتدريـب العمـلي. وقـد واجـه كلـوت في بداياتـه تحديـات اجتماعيـة وثقافية كبـيرة، خاصـة مـا يتعلـق بتشريـح الجثـث، وهـو مـا كان يثـير تحفظـات دينيـة واجتماعيـة. إلا أنـه تعامـل مـع هـذه الإشـكالات بحكمـة، مسـتعينًا بدعـم محمـد عـلي باشـا وبعـض علـماء الأزهـر، حتـى تمكّـن مـن ترسـيخ التعليـم الطبـي الحديـث دون صـدام حـاد مـع المجتمـع. ولم يقتـصر دور كلـوت بـك عـلى التعليـم الطبـي، بـل امتـد إلى تنظيـم المستشـفيات العسـكرية والمدنيـة، ووضـع لوائـح للرعايـة الصحيـة، وتأسـيس نظـام للخدمـات الطبيـة داخـل الجيـش. كـما أسـهم في إدخـال أسـاليب حديثـة للوقايـة مـن الأمـراض، ومكافحـة الأوبئـة، خاصـة الطاعـون والكولـيرا، التـي كانـت تشـكل تهديـدًا خطـيرًا للسـكان في تلـك الفـترة. وقـد مثّلـت هـذه الجهـود نقلـة نوعيـة في مفهـوم الصحـة العامـة في مـصر، حيـث انتقـل الاهتـمام مـن العـلاج الفـردي إلى التنظيـم الصحـي الشـامل.

ومـن أهـم إسـهامات أنطـوان كلـوت أيضًـا دوره في إعـداد كـوادر طبيـة مصريـة، إذ أشرف عـلى تعليـم عـدد كبـير مـن الطـلاب المصريـين، الذيـن أصبحـوا لاحقًـا نـواة الطـب الوطنـي في مـصر. وقـد حـرص عـلى أن يكـون التعليـم باللغـة العربيـة إلى جانـب الاسـتعانة بالمراجـع الأجنبيـة، مـما أسـهم في تعريـب المصطلحـات الطبيـة، وربـط العلـم الحديـث بالبيئـة الثقافيـة المحليـة. كـما شجّع عـلى إرسـال بعثـات طبيـة إلى أوروبـا، في انسـجام مـع سياسـة محمـد عـلي في بنـاء نخبـة علميـة مصريـة قـادرة عـلى الاسـتمرار في مـشروع التحديـث. وقـد نـال أنطـوان كلـوت تقديـرًا كبـيرًا مـن الدولـة المصريـة، فمنحـه محمـد عـلي باشـا رتبـة "بـك"، وهـو مـا جعلـه يُعـرف تاريخيًـا باسـم "كلـوت بـك"، كـما تقلّـد مناصـب رفيعـة في إدارة الشـؤون الطبيـة. ولم يكـن دوره تقنيًـا محضًـا، بـل كان جـزءًا مـن مـشروع سـياسي حضـاري أوسـع، يهـدف إلى بنـاء دولـة حديثـة تعتمـد عـلى العلـم والتنظيـم. وقـد عكـس حضـوره في مـصر نموذجًـا للتفاعـل بـين الخـبرة الأوروبيـة والطمـوح

الإصلاحي المحلي، في سياق تاريخي شديد التعقيد.غادر كلوت بك مصر بعد وفاة محمد علي وتراجع مشروعه الإصلاحي، وعاد إلى فرنسا، حيث واصل نشاطه العلمي وكتب مذكراته التي تُعد من أهم المصادر التاريخية لفهم تجربة التحديث في مصر في القرن التاسع عشر. وتوفي أنطوان كلوت في فرنسا عام ١٨٦٨م، بعد حياة حافلة بالعمل الطبي والإداري (الموسوعة الحرة, ٢٠٢٦; المعرفة, ٢٠٢٦).

مصطفى كامل: رائد الوطنية الحديثة في التاريخ المصري

مصطفى كامل: رائد الوطنية الحديثة في التاريخ المصري



يُعَدّ مصطفى كامل من أبرز رموز الحركة الوطنية المصرية في مطلع القرن العشرين، وأحد أكثر الشخصيات تأثيرًا في بلورة الخطاب الوطني المناهض للاحتلال البريطاني. وُلد مصطفى كامل محمد في القاهرة عام ١٨٧٤م، في أسرة متوسطة الحال، ونشأ في بيئة حضرية أتاحت له التعليم المبكر والانفتاح على قضايا عصره. التحق بمدرسة الحقوق، ثم واصل دراسته في فرنسا، حيث درس القانون، وتأثر بالفكر السياسي الأوروبي، ولا سيما مبادئ الحرية والدستور وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وهو ما انعكس بوضوح على مشروعه الوطني لاحقًا.و

منـذ شـبابه المبكـر، أظهـر مصطفـى كامـل وعيًـا سياسـيًا متقدمًـا، وارتبـط اسـمه مبكـرًا بالقضيـة الوطنيـة المصريـة، خاصـة في ظـل الاحتـلال البريطـاني الـذي فـرض سـيطرته عـلى البـلاد منـذ عـام ١٨٨٢م. وقـد آمـن مصطفـى كامـل بـأن معركـة الاسـتقلال لا تقتـصر عـلى المواجهـة الداخليـة، بـل تتطلـب مخاطبـة الـرأي العـام العالمـي، ولا سـيما في أوروبـا، لكسـب التعاطـف الـدولي مـع القضيـة المصريـة. ومـن هنـا جـاءت أهـم ملامـح تميـزه، إذ كان مـن أوائـل الزعـماء المصريـين الذيـن أدركـوا أهميـة الإعـلام والخطـاب الخارجـي في معركـة التحـرر الوطنـي.

اشـتهر مصطفــى كامــل ببلاغتــه الخطابيــة وقدرتــه الاســتثنائية عــلى الإقنــاع، ســواء في الداخــل المــصري أو في المحافــل الأوروبيــة. وقــد ألقــى عــددًا كبــيرًا مــن الخطــب في فرنســا، مدافعًــا عــن حــق مــصر في الاســتقلال، ومنــددًا بالسياســات الاســتعمارية البريطانيــة. كــما ألّــف كتابــه الشــهير "المسـألة الشرقيـة"، الـذي عـرض فيـه القضيـة المصريـة في سـياقها الـدولي، مـبرزًا التناقـض بـين ادعـاءات الاحتـلال البريطـاني وممارسـاته الفعليـة عـلى أرض الواقـع. وقـد مثّـل هـذا الكتـاب أحـد أهـم إسـهاماته الفكريـة، إذ قـدّم للقضيـة المصريـة بعـدًا تحليليًـا قانونيًـا وسياسـيًا موجهًـا للـرأي العـام الأوروبي.و كان حـادث دنشـواي عـام ١٩٠٦م نقطـة تحـول بـارزة في مسـيرة مصطفـى كامـل، حيـث اسـتثمر هـذه الحادثـة عـلى نحـو واسـع لكشـف قسـوة الاحتـلال البريطـاني وظلمـه، محـولًا إياهـا إلى قضيـة رأي عـام دولي. وقـد أسـهمت حملتـه المكثفـة عقـب دنشـواي في تعريـة السياسـة البريطانيــة، وأظهــرت مصطفــى كامــل كزعيــم وطنــي قــادر عــلى تحويــل الأحــداث المحليــة إلى أدوات ضغــط سياســية عــلى المســتوى الــدولي. ومنــذ ذلــك الحــين، ازدادت شــعبيته في الداخــل، وأصبــح صوتــه معــبرًا عــن غضــب الشــارع المــصري وتطلعاتــه للاســتقلال.

وفي عـام ١٩٠٧م، أسـس مصطفـى كامـل الحـزب الوطنـي، ليكـون أول تنظيـم سـياسي حديـث يرفـع شـعار الاسـتقلال التـام لمـصر، ويجعـل مـن الوطنيـة أساسًـا للعمـل السـياسي. وقـد شـكّل الحـزب الوطنـي إطـارًا مؤسسـيًا للحركـة الوطنيـة، وأسـهم في نـشر الوعـي السـياسي بـين فئـات واسـعة مـن المجتمـع، خاصـة مـن خـلال الصحافـة. وفي هـذا السـياق، أسـس مصطفـى كامـل جريـدة اللـواء، التـي لعبـت دورًا محوريًـا في التعبئـة الوطنيـة، ونـشر الأفـكار الدسـتورية، وتعزيـز روح المقاومـة السـلمية للاحتـلال. وقـد تميـزت كتاباتـه الصحفيـة بالحماسـة والوضـوح، وجمعـت بـين العاطفـة الوطنيـة والتحليـل السـياسي.ولم تقتـصر إسـهامات مصطفـى كامـل عـلى المجـال السـياسي فحسـب،

بـل امتـدت إلى البعـد الثقـافي والفكـري، حيـث دعـا إلى إحيـاء اللغـة العربيـة، وتعزيـز الهويـة الوطنيـة، وربـط الاسـتقلال السـياسي بالنهضـة التعليميـة والثقافيـة. وكان يؤمـن بـأن الاسـتقلال الحقيقـي لا يتحقـق إلا بوعـي شـعبي واسـع، وبأمـة قـادرة عـلى الدفـاع عـن حقوقهـا بالقانـون والمعرفـة، لا بالسـلاح وحـده. وقـد جعلتـه هـذه الرؤيـة مـن رواد الوطنيـة الحديثـة، التـي تقـوم عـلى التنظيـم، والوعـي، والعمـل المؤسـسي. وقـد تـوفي مصطفـى كامـل في القاهـرة عـام ١٩٠٨م، وهـو في الرابعـة والثلاثـين مـن عمـره، بعـد حيـاة قصـيرة زاخـرة بالعطـاء الوطنـي والفكـري. ورغـم قـصر عمـره، فـإن أثـره في التاريـخ المـصري كان عميقًـا وممتـدًا، إذ مهّـد الطريـق لزعـماء لاحقـين، وأسـهم في تشـكيل المنـاخ الفكـري والسـياسي الـذي قـاد لاحقًـا إلى ثـورة ١٩١٩م. وقـد شـيّعه المصريـون في جنـازة مهيبـة، عكسـت مكانتـه في الوجـدان الوطنـي، ورسّـخت صورتـه بوصفـه رمـزًا مبكـرًا للنضـال ضـد الاحتـلال (سـلام, ٢٠٢٣).

سعد زغلول

سعد زغلول



يُعَدّ سعد زغلول أحد أبرز رموز الحركة الوطنية في مصر الحديثة، ومن أكثر الشخصيات تأثيرًا في تشكيل الوعي السياسي المصري خلال الربع الأول من القرن العشرين. وُلد سعد بن زغلول إبراهيم في قرية إبيانة التابعة لمركز فوة بمحافظة كفر الشيخ عام ١٨٥٩م، في بيئة ريفية تقليدية، قبل أن ينتقل إلى القاهرة طلبًا للعلم، حيث التحق بالأزهر الشريف وتتلمذ على يد عدد من كبار علمائه، وكان من بينهم الإمام محمد عبده، الذي ترك أثرًا واضحًا في تكوينه الفكري والإصلاحي. وقد أسهم هذا التكوين الديني واللغوي في بناء شخصية تجمع بين الأصالة والانفتاح، وبين الفقه والوعي السياسي.

بدأ سعد زغلول حياته العملية في سلك القضاء، فعمل محاميًا ثم قاضيًا، وتدرج في المناصب حتى عُيّن وزيرًا للمعارف، ثم وزيرًا للحقانية (وزارة العدل). وخلال توليه وزارة المعارف، ترك بصمة إصلاحية مهمة، إذ دعم التعليم الوطني، وسعى إلى تعزيز اللغة العربية، وتوسيع فرص التعليم، مؤمنًا بأن النهضة الحقيقية لا تقوم

إلا على أساس تربوي ومعرفي راسخ. وقد انعكس هذا الإيمان بالتعليم لاحقًا في خطابه السياسي، حيث ظل يؤكد أن الاستقلال السياسي لا ينفصل عن بناء الإنسان المصري الواعي بحقوقه وواجباته.

برز اسم سعد زغلول على نحو غير مسبوق عقب الحرب العالمية الأولى، حين قاد الحركة المطالِبة باستقلال مصر عن الاحتلال البريطاني. ففي عام ١٩١٨م، شكّل مع عدد من رفاقه حزب الوفد المصري, بهدف تمثيل مصر في مؤتمر الصلح بباريس، والمطالبة بالاعتراف الدولي بحقها في الاستقلال. إلا أن السلطات البريطانية رفضت هذا المسعى، وقامت في مارس ١٩١٩م بنفي سعد زغلول وعدد من قادة الوفد إلى جزيرة مالطة، وهو القرار الذي فجّر واحدة من أعظم الثورات الشعبية في تاريخ مصر الحديث، وهي ثورة ١٩١٩م.

اتسمت ثورة ١٩١٩ بطابعها الشعبي الشامل، إذ شارك فيها الفلاحون والعمال والطلاب، والرجال والنساء، والمسلمون والنصارى ، في مشهد وطني جامع قلّ نظيره. وأصبح سعد زغلول رمزًا للوحدة الوطنية وللإرادة الشعبية، حتى في غيابه القسري عن الوطن. وقد عبّرت الهتافات والمظاهرات عن مكانته في الوجدان المصري، وتحول اسمه إلى عنوان لمرحلة كاملة من النضال السياسي. وبعد الإفراج عنه، واصل قيادة الحركة الوطنية، متنقلًا بين المفاوضات والضغوط الشعبية، في مواجهة سلطة الاحتلال.

تُوّج نضال سعد زغلول بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م، الذي اعترفت فيه بريطانيا باستقلال مصر استقلالًا منقوصًا، أعقبه إعلان المملكة المصرية ووضع دستور ١٩٢٣م، الذي يُعد من أهم الوثائق الدستورية في تاريخ مصر. وفي عام ١٩٢٤م، تولى سعد زغلول رئاسة أول وزارة شعبية في تاريخ البلاد، معبرًا بذلك عن انتقال الحركة الوطنية من الشارع إلى مؤسسات الحكم. وعلى الرغم من قصر مدة وزارته، فإنها جسدت لأول مرة مبدأ الحكم النيابي والإرادة الشعبية. ولم يكن سعد زغلول مجرد زعيم سياسي، بل كان صاحب مدرسة في الخطاب الوطني، امتازت بالبساطة والصدق والقدرة على مخاطبة الجماهير بلغة قريبة من وجدانهم. كما عُرف بصلابته في المواقف، ورفضه لأي تسوية تمس كرامة الوطن، وهو ما جعله عرضة للنفي مرة أخرى إلى سيشل، حيث قضى سنوات من عمره بعيدًا عن وطنه، دون أن يفقد مكانته أو تأثيره. توفي سعد زغلول في القاهرة عام ١٩٢٧م، بعد حياة حافلة بالنضال السياسي والفكري، وشيّعه المصريون في جنازة مهيبة عكست حجم التقدير الشعبي له. ولا يزال (بيت الأمة)، مقر إقامته في القاهرة، شاهدًا على سيرته ورمزيته الوطنية وقد تحول الى متحف . لقد أسهم سعد زغلول إسهامًا محوريًا في ترسيخ مفهوم الوطنية الدستورية، وفي تحويل مطلب الاستقلال إلى قضية شعبية جامعة، كما وضع الأسس الأولى للحياة النيابية والحزبية في مصر الحديثة (حجازي, ٢٠٢٢; حسيني, ٢٠١٦).

حفر قناة السويس

حفر قناة السويس



تُعد حفر قناة السويس واحدة من أكثر الوقائع تعقيدًا في تاريخ مصر الحديث، فهي ليست مجرد قصة مشروع هندسي غيّر خريطة الملاحة العالمية، بل حكاية ممتدة عن فكرة قديمة، وطموحات دولية، ومعاناة إنسانية، وآثار اقتصادية واستراتيجية عميقة تركت بصمتها على مصر والعالم. و فكرة الربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر لم تكن وليدة القرن التاسع عشر، بل تعود جذورها إلى عصور سحيقة، حين أدرك المصريون القدماء الأهمية الاستراتيجية لموقع بلادهم. تشير المصادر التاريخية إلى محاولات مبكرة لربط النيل بالبحر الأحمر، ويُنسب إلى الفرعون نخاو الثاني في القرن السادس قبل الميلاد أنه بدأ حفر قناة تصل النيل بخليج السويس، ثم تعاقبت محاولات تطوير هذه القناة في العهود الفارسية والبطلمية والرومانية، كما جرى استخدامها في بدايات العصر الإسلامي قبل أن تُهمل وتُغلق لأسباب سياسية وعسكرية. ومع ذلك، ظلت فكرة الوصل المائي بين البحرين حاضرة في أذهان الجغرافيين والمهندسين عبر القرون.

وفي العصر الحديث عادت الفكرة إلى الواجهة بقوة مع الحملة الفرنسية على مصر، إذ اهتم نابليون بونابرت بدراسة إمكانية شق قناة مباشرة بين البحرين، غير أن خطأً هندسيًا في تقدير منسوب المياه حال دون تنفيذ المشروع آنذاك. وبعد رحيل الفرنسيين ظلت الفكرة كامنة حتى منتصف القرن التاسع عشر، حين تبنّاها الدبلوماسي الفرنسي فرديناند دي لسبس، الذي نجح عبر علاقاته السياسية في إقناع والي مصر سعيد باشا بمنح شركة أجنبية امتياز حفر القناة وإدارتها. وقد بدأ الحفر فعليًا عام ١٨٥٩م، واستمر العمل عشر سنوات كاملة حتى افتتاح القناة عام ١٨٦٩م في عهد الخديوي إسماعيل. وخلف هذا الإنجاز التقني قصة إنسانية قاسية، إذ اعتمدت أعمال الحفر في مراحلها الأولى على نظام السُّخرة، فتم تجنيد عشرات الآلاف من الفلاحين المصريين قسرًا، وانتُزعوا من أراضيهم وقراهم للعمل في الصحراء في ظروف بالغة القسوة، دون أجر عادل، وبأدوات بدائية، وتحت إشراف أجنبي صارم. عانى هؤلاء العمال من الجوع والأمراض وسوء المعاملة، وتشير التقديرات إلى وفاة آلاف منهم خلال سنوات الحفر، وهو ما يجعل القناة شاهدًا على واحد من أكبر أشكال الظلم الاجتماعي في تاريخ مصر الحديث.

لم تتوقف السلبيات عند الجانب الإنساني، بل امتدت إلى البنية الاقتصادية والاجتماعية للدولة المصرية. فقد أثّر سحب أعداد هائلة من الفلاحين على الزراعة والإنتاج الريفي، كما تحمّلت خزينة الدولة أعباء مالية ضخمة نتيجة المشروع، في حين ذهبت الأرباح الأساسية إلى الشركة الأجنبية والدول الأوروبية المستفيدة. ومع تفاقم الديون، اضطر الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٥م إلى بيع أسهم مصر في القناة لبريطانيا، ففقدت مصر السيطرة على أهم ممر مائي في أراضيها، وتحولت القناة من فرصة اقتصادية محتملة إلى أداة ضغط وهيمنة أجنبية. وعلى المستوى الاستراتيجي، فقد غيّرت قناة السويس موازين القوى في العالم، إذ اختصرت الطريق البحري بين أوروبا وآسيا، وأصبحت شريانًا حيويًا للتجارة العالمية، ولا سيما للإمبراطورية البريطانية التي رأت في القناة طريقها الأسرع إلى الهند. وبالنسبة لمصر، جعلها هذا الموقع محورًا للصراع الدولي، وأسهمت القناة بشكل مباشر في تزايد التدخل الأجنبي، وكان الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢م أحد نتائجه، حيث اتُخذت حماية القناة ذريعة دائمة لبقاء القوات البريطانية في البلاد (أبو هاشم, ٢٠٢١ك الهيئة العامة للاستعلامات, ٢٠٢٢: العربية ٢٠٢١.

أحمد عرابي: الفلاح الذي واجه التمييز وعبّر عن الوعي الوطني المبكر

أحمد عرابي: الفلاح الذي واجه التمييز وعبّر عن الوعي الوطني المبكر

يُعد أحمد عرابي باشا من أبرز الشخصيات المفصلية في تاريخ مصر الحديث، إذ مثّل ظهوره انتقالًا نوعيًا في الوعي السياسي والاجتماعي، حين تحوّل الاحتجاج من مطالب فئوية داخل مؤسسات الدولة إلى خطاب وطني يطالب بالعدل والمساواة وكرامة المصريين في وطنهم. ولم تكن حركة عرابي وليدة لحظة معزولة، بل جاءت نتيجة تراكم تاريخي طويل من السياسات التي كرّست التمييز داخل الدولة، ولا سيما داخل المؤسسة العسكرية. وقد وُلد أحمد عرابي عام ١٨٤١م في قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية، في أسرة فلاحية بسيطة، وهو ما جعله منذ نشأته قريبًا من واقع الأغلبية الساحقة من المصريين. التحق بالأزهر في صباه، فتلقى قدرًا من العلوم الشرعية واللغوية، ثم انضم إلى الجيش المصري، المؤسسة التي ستصبح لاحقًا ساحة الصراع الأساسية بين المصريين من جهة، والطبقات المهيمنة من غير المصريين من جهة أخرى. ومن المهم لفهم حركة عرابي أن يُستحضر السياق التاريخي السابق لها، خاصة في عهد محمد علي باشا، الذي يُنظر إليه غالبًا بوصفه مؤسس الدولة المصرية الحديثة. فعلى الرغم من إنجازاته الإدارية والعسكرية، فإن سياساته اعتمدت بدرجة كبيرة على تمكين العناصر الأجنبية، من أتراك وألبان وشراكسة وأوروبيين، على حساب المصريين، سواء في المناصب القيادية أو في الجيش والإدارة. وقد استمر هذا النهج بعده في عهود خلفائه، حيث ظل الضباط من غير المصريين يهيمنون على الرتب العليا، بينما حُصر أبناء المصريين في المراتب الدنيا، بغضّ النظر عن الكفاءة أو الأقدمية.



في هـذا المنـاخ نشـأ أحمـد عـرابي وتكـوّن وعيـه، فـكان احتجاجـه في بداياتـه موجّهًـا ضـد التمييـز داخـل الجيـش، وضـد احتـكار الضبـاط الشراكسـة للمناصـب العليـا. ولم يكـن عـرابي حالـة فرديـة، بـل عـبّر عـن تيـار واسـع مـن الضبـاط المصريـين الذيـن شـعروا بأنهـم غربـاء في جيـش يُفـترض أنـه وطنـي. ومـع مـرور الوقـت، تحوّلـت هـذه المطالـب المهنيـة إلى مـشروع سـياسي أوسـع، يدعـو إلى المسـاواة بـين المصريـين وغيرهـم، وإلى إقامـة نظـام دسـتوري، وتشـكيل مجلـس نـواب، والحـد مـن اسـتبداد السـلطة، ووقـف التدخـل الأجنبـي المتزايـد في شـؤون البـلاد. وبلغـت الحركـة العرابيـة ذروتهـا في سـبتمبر ١٨٨١م، في المشـهد الشـهير أمـام قـصر عابديـن، حـين وقـف أحمـد عـرابي مخاطبًا الخديـوي توفيـق، معـبرًا عـن رفضـه للظلـم والتمييـز، ومؤكـدًا أن المصريـين أحـرار في وطنهـم، لا عبيـدًا ولا أمـلاكًا تـورث. وقـد مثّـل هـذا الموقـف لحظـة فارقـة، انتقلـت فيهـا فكـرة الوطنيـة مـن النخبـة إلى المجـال العـام، وظهـر فيهـا لأول مـرة ضابـط مـصري مـن أصـل فلاحـي يواجـه رأس السـلطة باسـم الأمـة.

غـير أن الحركـة العرابيـة واجهـت تحديـات كـبرى، داخليًـا بسـبب تـردّد بعـض النخـب، وخارجيًـا بسـبب رفـض القـوى الأوروبيـة، وعـلى رأسـها بريطانيـا، لأي مـشروع وطنـي قـد يهـدد مصالحهـا الاقتصاديـة والسياسـية في مـصر. وفي عـام ١٨٨٢م، تدخلـت بريطانيا عسـكريًا، وقُصفت الإسـكندرية، ثـم هُزمـت القـوات المصريـة في معركـة التـل الكبـير، وهـو مـا أدى إلى فشـل الحركـة عسـكريًا، وفتح البـاب أمـام الاحتـلال البريطـاني لمـصر.و أُحيـل أحمـد عـرابي إلى المحاكمـة، وصـدر الحكـم بنفيـه إلى جزيـرة سـيلان، حيـث قـضى نحـو تسـعة عـشر عامًـا في المنفـى. ولم يكـن نفيـه مجـرد عقوبـة شـخصية، بـل محاولـة لإقصـاء رمـز وطنـي جسّـد رفـض التمييـز وهيمنـة الأجانـب، وهـي القضايـا التـي ظلّـت حـاضرة في الوعـي المـصري بعـده. وعندمـا عـاد إلى مـصر عـام ١٩٠١م بعفـوٍ رسـمي، عـاد إلى وطـن واقـع تحـت الاحتـلال، وقـد تغـيّر المشـهد السـياسي، لكنـه بقـي رمـزًا لبدايـة الوعـي الوطنـي المنظّـم. و تـوفي أحمـد عـرابي عـام ١٩١١م، وقـد اختلفـت حولـه تقييـمات المؤرخـين، بـين مـن رآه قائـدًا وطنيًـا شـجاعًا سـبق عـصره، ومـن انتقـد محدوديـة خبرتـه السياسـية والعسـكرية. غـير أن القيمـة الحقيقيـة لتجربتـه لا تكمـن في نتائجهـا العسـكرية، بـل في كشـفها المبكـر لخلـل بنيـوي في الدولـة المصريـة، بـدأ منـذ عهـد محمـد عـلي باشـا، حـين تـم تمكـين الأجانـب عـلى حسـاب المصريـين، واسـتمر حتـى انفجـر في صـورة حركـة وطنيـة واسـعة (أبونحـل, ٢٠٢١).

الطلاب الدوليون في الأزهر عبر التاريخ

الطلاب الدوليون في الأزهر عبر التاريخ

(منقول من جزء من دراستي بعنوان الطلاب الدوليون في مؤسَّسات التعليم العالي في الوطن العربي منشورة عام ٢٠٢٤)

تواجد الطلاب الذين يُطلق عليهم بالمصطلحات المعاصرة طلاب دوليون في الجامعات العربية والإسلامية القديمة مثل الزيتونة والقرويين والأزهر، ويُعتبر جامع الزيتونة في تونس هو الأقدم من حيث التأسيس، حيث أُسِّس عام ٦٩٨ للميلاد، ويعتقد بعض المؤرِّخين أن سبب تسميته بهذا الاسم هو بناء المسجد في المحيط الذي يحوي قبر القديسة الكاثوليكية أوليفيا التي وُلِدت في باليرمو التي هي جزء من إيطاليا اليوم، وتُوفِّيت في تونس عام ٤٦٣م، وتُسمَّى قديسة الزيتون، لذلك أُطلِق اسم الزيتونة على الجامع، وإن كان بعض المؤرِّخين له وجه نظر مختلفة لأصل التسمية. وبغضِّ النظر عن طبيعة تصنيف الحلقات العلمية في جامع الزيتونة بأنها حلقات جامعية وأن الدراسة فيها منتظمة أو غير منتظمة إلا أنه كان هناك حراكٌ علميٌّ كبيرٌ في هذه الجامعة، والتي كان من أبرز خريجيها العلَّامة ابن خلدون صاحب المقدِّمة ومؤسِّس علم الاجتماع، والذي درس أيضًا في القرويين كما كان له دور في التدريس بالأزهر. وفي عام ٨٥٩ للميلاد أُسِّست جامعة القرويين في مدينة فاس بالمغرب والتي يعتقد كثير من المؤرِّخين وكذلك بعض المنظمات أنها أقدم جامعة في العالم، وقد كانت الجامعات العربية والإسلامية القديمة على قدر كبير من الانفتاح الثقافي والحضاري، وكما كانت تتميَّز بالتسامح، ومن أبرزها جامعة القرويين، حيث فتحت أبوابها ليس فقط للطلاب المسلمين والعرب بل كان هناك طلاب دوليون من غير المسلمين، من أبرزهم الفيلسوف اليهودي والطبيب البارز موسى بن ميمون المولود في الأندلس والمتوفَّى في القاهرة عام ١٢٠٤ للميلاد، كما درس الفرنسي جربير في القرويين، ونقل التراث العربي للقارة الأوربية، ثم بفضل ما تعلَّمه في القرويين أصبح هذا الطالب الدولي الفرنسي يقود الزعامة الدينية للكاثوليك في العالم، حيث أصبح بابا الفاتيكان، وهو أول بابا فرنسي، وقد تعلَّم هذا البابا الذي يُطلق عليه سلفستر الثاني في جامعة القرويين وفي مدارس الأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، ونقل الكثير من العلوم من اللغة العربية إلى أوروبا مثل الحساب والرياضيات والفلَك، وهو البابا الوحيد الذي تعلَّم اللغة العربية، ومن المقولات التي انتشرت عن هذا البابا: أنه لا يُمكن لأوروبا أن تتقدَّم إلا بمعرفة علوم العرب (البشر, ٢٠٢٣: الشناوي, ٢٠١٣: عاشور, ٢٠٠٦)

وفي عام ٩٦٩م دخل القائد العسكري الفاطمي جوهر الصقلي مصر في جيش جرار، وقد قرَّر الفاطميون نقل عاصمتهم من المغرب إلى مصر، فاختار القائد العسكري الذي كان -في أغلب الظن- مملوكًا من صقلية مكانًا جغرافيًّا بالقرب من الفسطاط؛ لتكون عاصمة للدولة الفاطمية، وأطلق عليه في بداية الأمر اسم المنصورية على اسم والد الخليفة الفاطمي في ذلك الوقت المعز لدين الله، وعند انتقال الخليفة الفاطمي من القيروان إلى مصر غيَّر اسم المدينة الجديدة لتُصبح باسمها الحالي القاهرة، حيث كان الخليفة يتفاءل بأن تكون عاصمته الجديدة قاهرة الأعداء خاصة من العباسيين. وقد تم بناء جامع جديد للدولة الفاطمية في العاصمة الجديدة؛ كون أن هذه الدولة تتبنَّى المذهب الشيعي الإسماعيلي، بينما كان غالبية المصريين من السُّنَّة، لذلك بُنِي جامع الأزهر. وفي عام ٩٧٢ اكتمل بناء الجامع الأزهر، ويذكر الشناوي (٢٠١٣) أنه لم يكتمل أكثر من ثلاث سنوات ونصف على افتتاح الجامع الأزهر للصلاة رسميًّا حتى شهد الجامع بداية الحلقات العلمية فيه والتي لم تنقطع منذ ذلك الوقت. وهناك اختلاف حول ظهور الأروقة أو المساكن الطلابية للمرة الأولى في تاريخ الأزهر، لكن لا يُوجد شك في أن البداية العلمية للجامع كانت في عهد الوزير يعقوب بن كلس في العهد الفاطمي، حيث كان الهدف من تأسيس الجامع وعقد الحلقات العلمية فيه هو نشر عقيدة المذهب الإسماعيلي في أواسط المصريين الذين يغلب عليهم المذهب السُّنِّي (عبد الرزاق, ٢٠٢٢). وقد وُلِد ابن الكلس لأسرة يهودية في بغداد ثم أسلم بعد ذلك، وقد تُوفِّي عام ٩٩٠ للميلاد (الخفاجي, ٢٠١٧)، وقد كان ابن كلس منظرًا للمذهب الإسماعيلي، وكان يُعتبر بالمفهوم المعاصر أستاذًا جامعيًّا، ويعتقد الشناوي أن ابن كلس عرض في سنة ٣٧٨ للهجرة حوالي ٩٨٨ للميلاد على الخليفة العزيز بالله مشروعًا علميًّا يتلخَّص في أن تقوم الدولة باختيار جماعة من الفُقهاء للدرس والقراءة في الأزهر بصفة دائمة، فوافق الخليفة الفاطمي على المقترح، وأمر بتعيين ٣٥ طالبًا كان الوزير ابن كلس قد اختارهم، وكان لهؤلاء الطلبة الخمسة والثلاثين رئيسٌ مسؤولٌ عنهم، وكان اسمه أبا يعقوب قاضي الخندق. ويُضيف الشناوي أنه لَمَّا حلَّ عيد الفطر وزَّع الخليفة العطايا على هؤلاء الطلاب، وأمر بأن يستقلوا البغال في تنقُّلاتهم تشريفًا لهم وتكريمًا لطلاب العلم, وقد كان من المتعارف عليه في مصر في ذلك العصر أن ركوب البغال مقتصرٌ على العلماء أمَّا الحمير فقد كانت لسائر الشعب. ويذكر (الجندي, ٢٠١١٣) أن أول حلقة علم في الأزهر تكوَّنت من ٣٥ طالبًا فقيهًا، فأمر العزيز بالله الفاطمي ببناء منزل حول الأزهر لإقامة هؤلاء الطلاب، فكان أوَّل سكن طلابي

في تاريخ الجامعات. وبعد سقوط الفاطميين وسيطرة الأيوبيين حاول صلاح الدين الأيوبي تحجيم الفكر الإسماعيلي في مصر عبر إنشاء الكليات السُّنِّية، وتم تهميش الأزهر وإيقاف صلاة الجمعة فيه لمدة تقترب من القرن. وقد استردَّ الأزهر مكانته العلمية في عصر دولتي المماليك البحرية والشركسية، ومن ثَمَّ صار الإقبال كبيرًا على طلب العلم في حلقات الجامع الأزهر والذي تحوَّل لتدريس العديد من العلوم مع التركيز على العلوم الشرعية حسب تعليمات المذاهب السُّنِّية، وبسبب إقبال الطلاب على الأزهر لطلب العلم -ومنهم الطلاب الذين يُسمَّوْن اليوم طلابًا دوليين- تم التوسُّع في الأروقة، وهي المساكن الطلابية، وقد بلغت أروقة الجامع الأزهر عبر العصور ٢٩ رواقًا قبل أن يُؤمَر بغلق هذه المساكن، وبناء مدينة سكنية لطلاب الأزهر في بداية الخمسينات الميلادية في القرن الماضي، وقد كان هناك أروقة للطلاب الوافدين في الأزهر أو مَن يُسمَّوْن طلابًا دوليين منذ قديم الزمان، وهذا يدلُّ على ازدهار الحراك الدولي في الأزهر سواء للطلاب أو للأساتذة.

وتُشير المصادر التاريخية إلى أن الحكام والمحسنين قد تبرَّعوا وأقاموا أوقافًا لتمويل تشغيل وصيانة المساكن الطلابية والطلاب المقيمين فيها وتوفير النفقات والإعاشة لهم، حيث كان كل طالب في هذه الأروقة يُصرف له الخبز وغيره من المواد الغذائية بشكل منتظم، كما كان لكل مسكن طلابي مكتبة خاصة وأكثر من مشرف لتنظيم الأمور الطلابية والإشراف عليها، وكذلك لتمثيل الطلاب القاطنين في السكن الطلابي أمام مسؤولي الجامع الأزهر. وكان الطلاب يُقسَّمون في الأزهر بحسب المكان الجغرافي أو المذهبي، حيث إن الأزهر تبنَّى المذاهب الإسلامية السُّنِّية الأربعة، وهي: الشافعي والحنبلي والمالكي والحنفي. ومن أبرز الأروقة أو المساكن المخصَّصة للطلاب الدوليين رواق الشوام، وهو مساكن مخصَّصة للإعاشة والإقامة لطلاب العلم من بلاد الشام، وكان يحوي هذا المكان خزانة كتُب بها ٢١٠٠ مجلَّد، وكان من أكثر المساكن الطلابية ازدحامًا بالطلاب، وكان الطلاب تُصرف لهم في الرواق الشامي ٨٦٥ رغيفًا كل يومين، كما كان طلاب هذا الرواق تُصرَف لهم رواتب شهرية كذلك في بداية كل شهر، وقد أنشا هذا المسكن الطلابي السلطان المملوكي الأشرف قايتباي المتوفَّى عام ١٤٩٦ للميلاد، ويُذكر أن الأشرف قايتباي قد أهدى منبرًا للمسجد النبوي بعد الحريق الذي نشب في المسجد النبوي عام ١٤٨١ للميلاد.

إضافة إلى ما سبق كانت هناك مساكن للطلاب الدوليين من المغرب العربي سُمِّيت رواق المغاربة، وكان مخصَّصًا للطلاب من برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش، وكان هناك رواق الأتراك، وكان هناك رواق الحرمين للطلبة الدارسين من الحجاز، ومن المساكن الطلابية في الأزهر المخصَّصة للطلاب الوافدين رواق البرناوية، وهو مخصَّص للطلاب من السنغال والنيجر وغينيا وساحل العاجل وغانا، كما ينقل الشناوي (٢٠١٣) وجود مسكن طلابي سُمِّي برواق الجبرتية، وهو مخصَّص للطلاب من الحبشة والصومال وأرتيريا، كما كان هناك رواق أو مسكن طلابي لكل مجموعة من الطلاب الدوليين، حيث رُوعي في هذه المساكن أن تضمَّ الطلاب من ذوي الثقافات المتقاربة، فقد كان هناك سبعة عشر رواقًا مخصَّصة للطلاب الدوليين بالإضافة إلى الأروقة الخاصة بالطلاب المصريين، وقد كان آخر رواق وُجِد بالأزهر هو رواق الصين ورواق جنوب إفريقيا، وقد أُنشئت في القرن التاسع عشر، وفي عام ١٩٥٤م صدر قرار من مجلس الوزراء في جمهورية مصر العربية ببناء مدينة جامعية تخصَّص لسكنى طلبة الأزهر كبديل عصري.

ماريو روسي: المعماري الذي عبر بالعمارة الإسلامية من التقليد إلى الفهم

ماريو روسي: المعماري الذي عبر بالعمارة الإسلامية من التقليد إلى الفهم

يُعد ماريو روسي واحدًا من الأسماء اللافتة في تاريخ العمارة الحديثة في مصر، لا لأنه كان معماريًا أوروبيًا عمل في بلد إسلامي فحسب، بل لأنه اختار أن يتعامل مع العمارة الإسلامية بوصفها منظومة فكرية وجمالية متكاملة، لا مجرد أشكال زخرفية قابلة للنقل أو التقليد. وقد جاءت تجربته في النصف الأول من القرن العشرين في لحظة تاريخية ، كانت فيها مصر تبحث عن صيغة معمارية تجمع بين الأصالة والحداثة، وبين التراث والوظيفة المعاصرة. وقد وُلد ماريو روسي في روما عام ١٨٩٧م، وتلقى تعليمه في أكاديمية الفنون الجميلة، حيث تشكّلت خلفيته المعمارية في بيئة أوروبية كلاسيكية، غير أن انتقاله إلى مصر مثّل التحول الأهم في مسيرته المهنية والفكرية. ففي ثلاثينيات القرن العشرين جاء روسي إلى مصر، وعمل ضمن منظومة الدولة الحديثة، حتى تولّى منصب المهندس الرئيسي بإدارة الأوقاف المصرية، وهي الجهة المسؤولة عن بناء المساجد والإشراف عليها. ومن هذا الموقع، لم يكن دوره تقنيًا محضًا، بل أصبح شريكًا في صياغة صورة المسجد المصري الحديث.

ما يميّز تجربة ماريو روسي أنه لم يتعامل مع العمارة الإسلامية كتراث جامد، بل بوصفها لغة حيّة لها قواعدها ومنطقها الداخلي. فقد درس العمارة المملوكية والفاطمية والأندلسية بعمق، وتأمل علاقة الضوء بالفراغ، والقباب بالمآذن، والزخرفة بالوظيفة، ثم حاول أن يعيد إنتاج هذه العناصر في سياق معاصر، يحترم روح المكان وحاجات المجتمع في آن واحد. لذلك جاءت مساجده متزنة، مهيبة، واضحة الوظيفة، بعيدة عن الإفراط الزخرفي أو الاستنساخ الحرفي للماضي. ويُعد مسجد أبي العباس المرسي في الإسكندرية أبرز أعماله وأكثرها شهرة، فقد أعاد روسي تصميم المسجد في صورته الحالية خلال أربعينيات القرن العشرين، فجاء البناء ضخمًا متناسقًا، تتقدمه قباب واسعة ومئذنة شاهقة، تعكس تأثره الواضح بالعمارة المملوكية مع حضور أندلسي ناعم. وعلى الرغم من الجدل الديني المرتبط بوجود الضريح داخل المسجد، فإن العمل المعماري ذاته يكشف عن فهم عميق لفكرة المسجد بوصفه فضاءً عامًا للعبادة، لا مجرد مبنى احتفالي.

وامتـد أثـر ماريـو روسي في الإسـكندرية إلى مسـجد القائـد إبراهيـم، الـذي جـاء تصميمـه أقـل ضخامـة مـن مسـجد المـرسي، لكنـه أكـثر قربًـا مـن النسـيج العمـراني للمدينـة، حيـث تداخـل المسـجد مـع الشـارع والحيـاة اليوميـة، مـع الحفـاظ عـلى سـمته الدينيـة الواضحـة. كـما انتقـل روسي إلى القاهـرة، فصمّـم مسـجد عمـر مكـرم في ميـدان التحريـر، وهـو مسـجد حمـل دلالـة وطنيـة إلى جانـب وظيفتـه الدينيـة، وجـاء تصميمـه بسـيطًا نسـبيًا، يعتمـد عـلى وضـوح الخطـوط، وتوظيـف الإضـاءة الطبيعيـة، وإبـراز المحـراب والمنـبر دون مبالغـة.

ولم تكـن مسـاجد روسي مجـرد أعـمال معماريـة منفصلـة، بـل كانـت تعبـيرًا عـن رؤيـة متكاملـة للمسـجد في العـصر الحديـث، مسـجد يظـل مرتبطًـا بالـتراث، لكنـه منفتـح عـلى التنظيـم العمـراني الحديـث، ومسـجد يعـبّر عـن الوقـار والسـكينة، دون أن يتحـول إلى أثـر متحفـي أو مبنـى مغلـق عـلى ذاتـه. وقـد أكسـبه هـذا النهـج احترامًـا واسـعًا في الأوسـاط المعماريـة المصريـة، حتـى عُـدّ واحـدًا مـن أكـثر المعماريـين الأجانـب فهـمًا للعـمارة الإسـلامية. ومـن الجوانـب اللافتـة في سـيرته أنـه اعتنـق الإسـلام عـام ١٩٤٦م، وأشـهر إسـلامه في جامـع أبي العبـاس المـرسي بالإسـكندرية، وهـو المسـجد الـذي شـارك في إعـادة بنائـه، في لحظـة حملـت دلالات رمزيـة عميقـة، إذ لم يكـن تحوّلـه الدينـي نتيجـة علاقـة شـكلية بالعـمارة، بـل ثمـرة معايشـة طويلـة للمجتمـع الإسـلامي، وتأمـل في معـاني المـكان والعبـادة. وقـد عـاش روسي بقيـة حياتـه مرتبطًـا بمـصر ثقافيًـا ووجدانيًـا، حتـى وفاتـه عـام ١٩٦١م أثنـاء وجـوده في القاهـرة (الموسـوعة الحـرة , ٢٠٢٦: صحيفـة الاتحـاد, ٢٠٠٩).

نابليون بونابرت والمولد النبوي

نابليون بونابرت والمولد النبوي

يُعدّ الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف جزءًا من ثقافات كثير من المجتمعات الإسلامية والعربية، ففي كل عام يتم الاحتفال به، ويتوسع الناس في المأكل والمشرب والملبس في ذلك اليوم. وقد ظهرت أمثال عربية مرتبطة بالمولد النبوي، مثل قولهم: «طلع من المولد بلا حمص»، ويُقصد به أن الشخص لم يستغل الفرصة الكبرى، أو كما يقول العرب: «خرج بخُفَّي حُنين». فرغم كثرة المأكولات وتنوعها في الموالد، لم ينل حتى الحمص، وهو أرخص المأكولات وأكثرها وفرة في تلك المناسبات. كما أن الموالد الدينية تُعدّ في كثير من الأحيان فرصةً للاستغلال المالي أو السياسي، وتستعرض هذه المقالة نموذجًا من استغلال مناسبة المولد النبوي للظفر بمكاسب سياسية. عرف المحتلون الغربيون مكانة مناسبة المولد النبوي في قلوب كثير من الشعوب الإسلامية، وساعدهم في ذلك المستشرقون والرحالة الأوروبيون الذين درسوا المجتمعات العربية والأحداث المؤثرة فيها، ومهّدوا للاحتلال الأجنبي للمنطقة العربية. ومن أهم الأمثلة على ذلك احتفال نابليون بونابرت بالمولد النبوي في مصر.



و يشـير الدكتـور عبدالعزيـز الشـناوي في كتابـه المعنـون بــ «الأزهــر جامعًــا وجامعــة» إلى أن بونابـرت حـرص عـلى الاحتفـال مـع المصريـين بالمولـد النبـوي بغيـة التـودد إليهـم، في ظـل سـخطهم عـلى الحكـم الفرنـسي في البـلاد. ففـي شـهر أغسـطس مـن سـنة ١٧٩٨م، أي بعـد شـهر تقريبًـا مـن دخولـه القاهـرة، أمـر بونابـرت بإقامـة احتفـالات كـبرى بمناسـبة ذكـرى المولـد النبـوي، فاقـت في روعتهـا الاحتفـالات التـي كانـت تُقـام في هـذه المناسـبة في عهـود السـلاطين والمماليـك مـن الحـكام المسـلمين الذيـن تعاقبـوا عـلى حكـم مـصر. وقـد أمـر بونابـرت بـإشراك الجيـش الفرنـسي والموسـيقات العسـكرية في الاحتفـالات، وأن تُطلـق المدافـع نهـارًا، والألعـاب الناريـة والصواريـخ ليـلًا. كـما يـسرد الشـناوي أن بونابـرت أعطـى توجيهاتـه بتعليـق قناديـل ذات زجـاج متعـدد الألـوان أمـام مقـر القيـادة العامـة للجيـش الفرنـسي في الأزبكيـة، وهـي إحـدى مناطـق القاهـرة، لتضفـي منظـرًا جماليًـا عـلى المدينـة خـلال الاحتفـالات بالمولـد النبـوي. واسـتمرت الاحتفـالات بالمولـد النبـوي في القاهـرة مـن ١٩ إلى ٢٣ أغسـطس مـن عـام ١٧٩٨م، حيـث أوقـدت القناديـل خـلال لياليهـا، وأمسـت شـوارع القاهـرة بمثابـة أسـواق ليليـة، مـع إضـاءة غـير مسـبوقة للشـوارع الرئيسـية خـلال الليـالي الخمـس المذكـورة.

ولم يكتـفِ بونابـرت بتنظيـم الاحتفـالات بصفتـه الحاكـم لمـصر في تلـك المرحلـة، بـل حـضر الليلـة الختاميـة للمولـد في دار السـيد خليـل البكـري، وهـو مـن كبـار الصوفيـة. وقـد حـضر برفقتـه بعـض العلـماء الفرنسـيين، وأعضـاء مجمـع مـصر العلمـي، وكبـار ضبـاط الجيـش. وينقـل الشـناوي أن بونابـرت جلـس عـلى الأرض لسـاعات طويلـة خـلال الاحتفـال، الـذي تخللتـه قـراءة القـرآن الكريـم، والتواشـيح، والأناشـيد الدينيـة، وسرد قصـة النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم. وقـد كان نابليـون يُظهـر اهتمامًـا بمـا يُقـال في ذلـك المجلـس، وكان يهتـز ذات اليمـين وذات الشـمال مقلـدًا الصوفيـة المحيطـين بـه في الاحتفـال، وهـو مـا يعكـس دهـاءه السـياسي، إذ كان يُظهـر تأثـره بـالأذكار والتواشـيح. كـما شـارك نابليـون أعيـان القاهـرة في المأدبـة المقامـة في دار السـيد البكـري، حيـث كان يـأكل بيـده تمامًـا مثـل المصريـين، فيمـد يمينـه في تـلال الأرز وأكـوام اللحـم وأطايـب الطعـام المقدمـة عـلى صـوانٍ نحاسـية ضخمـة مسـتديرة. اعتقـد نابليـون أن الاحتفـال مـع المصريـين في الموالـد الدينيـة قـد يسـاعده عـلى إحـكام السـيطرة وإمسـاك زمـام الأمـور في مـصر، إلا أن ذلـك لم يتحقـق، وانسـحب مـن القاهـرة في العـام التـالي. وتظـل المناسـبات الدينيـة فرصًـا ذهبيـة للاسـتغلال مـن قبـل أصحـاب النفـوذ والسياسـة حتـى يومنـا هـذا، مـما يوجـب علينـا الوعـي واليقظـة مـن

محـاولات توظيفهـا لخدمـة أجنـدات خفيـة، قـد يُـدسّ فيهـا السـم في العسـل. وفي نهايـة هـذا المقـال، أؤكـد أننـي أميـل إلى رأي علـماء الديـن الذيـن يـرون بدعيـة الاحتفـال بالمولـد النبـوي، لكـون النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، والصحابـة الكـرام لم يحتفلـوا بهـذه المناسـبة، وهـم أشـد النـاس حبًـا وتعلقًـا بالنبـي العـربي، عليـه الصـلاة والسـلام. وأفضـل طريـق لإثبـات محبتـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم، هـو اتبـاع سـنته .

نشر هذا المقال في صحيفة الوطن بتاريخ ٢٣ أكتوبر ٢٠٢١

رفاعة الطهطاوي في مرسيليا

رفاعة الطهطاوي في مرسيليا

عند الحديث عن التراث الثقافي العربي الحديث، لا نستطيع تجاوز مقام رفاعة الطهطاوي، المولود عام ١٨٠١م، وهو العام الذي انسحب فيه الفرنسيون من مصر؛ ولذلك لم يرَ رفاعة الفرنسيين، بل سمع عنهم الكثير من الشر، باستثناء ثلةٍ بسيطة، كان من بينهم أستاذه الأزهري الشيخ حسن العطار، الذي أُعجب بما رآه من تطورٍ وعلمٍ وتنظيمٍ وإدارة لدى الفرنسيين خلال فترة احتلالهم مصر. يُذكر أن العطار غادر مصر عقب مغادرة الحملة الفرنسية، حيث كان هناك فراغ سياسي وأمني كبير، وخشي على نفسه لكونه محسوبًا على المتأثرين بالتجربة الفرنسية، ثم عاد إلى مصر مرة أخرى بعد استقرار الأوضاع، وهناك التقى بتلميذه الألمعي رفاعة الطهطاوي. وقد أوصى العطار الحكومة المصرية، عندما قررت التوسع في البعثات الدراسية الخارجية، بأن يكون الشيخ رفاعة الطهطاوي ضمن البعثة المتجهة إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م، ليكون إمامًا ومشرفًا دينيًا للطلبة، كونه من خريجي الأزهر الشريف. تمت الموافقة على طلب الشيخ العطار، وأُرسل ٣٩ طالبًا لتعلم مختلف العلوم والفنون السائدة آنذاك في فرنسا، وكان رفاعة ليُكمل العدد أربعين مبعوثًا. وكان معظم هؤلاء الطلبة لا يتحدثون العربية، إذ إن محمد علي باشا الألباني الأصل لم يكن يرغب في تعليم العرب، خشية أن يشكلوا تهديدًا لحكمه، ففضّل إرسال الأتراك والشركس، إلا أن موقفه تراخى مع تقدمه في السن، فتوسع في التعليم داخل مصر نسبيًا. وعلى الرغم من أن رفاعة أُرسل في البداية بوصفه إمامًا ومشرفًا دينيًا لحماية أخلاق الطلبة من تأثيرات الثقافة الفرنسية، فإنه استطاع الحصول على إذن من الحكومة المصرية ليكون طالبًا أيضًا، فأصبح من أنجح أفراد البعثة المصرية، ولا تزال آثاره الفكرية والعلمية شاهدة على تميّزه حتى اليوم.

تميّز رفاعة بحبه للترجمة، وعمل بعد عودته من الرحلة العلمية إلى الديار الفرنسية، التي استغرقت قرابة خمس سنوات، على ترجمة الكتب والمراجع. ثم قام عام ١٨٣٥م بافتتاح مدرسة للمترجمين، إيمانًا منه بضرورة إعداد جيل جديد من المترجمين والمفكرين العرب القادرين على المزاوجة بين العربية واللغات الحية الأخرى، وتعريب المعارف النافعة، والاستفادة من النهضة العلمية في الدول الغربية. وتحول اسم المدرسة لاحقًا إلى دار الألسن، ثم أصبحت كلية دار الألسن التابعة لجامعة عين شمس. وقد سُمّيت الجامعة بهذا الاسم تيمنًا برمزية المعابد الفرعونية في حي عين شمس، حيث كانت تُعبد الشمس، ويُعتقد أن

المنطقـة كانـت تضـم مـا يشـبه جامعـة فرعونيـة قديمـة، تُرجـم اسـمها إلى العربيـة بـ«عين شـمس».
إنتاجـات رفاعـة التعليميـة والثقافيـة كبـيرة، ولا يمكـن حصرهـا في هـذا المقـام؛ فقـد أسـس المـدارس، وترجـم عـشرات الكتـب والروايـات مـن الفرنسـية إلى العربيـة، كـما ألّـف عـام ١٨٣٤م كتابًـا يُعـد مـن أهـم قطـع الـتراث العـربي في النصـف الأول مـن القـرن التاسـع عـشر، تنـاول فيـه مشـاهداته وخبراتـه وانطباعاتـه عـن رحلتـه العلميـة إلى فرنسـا، وحمـل عنـوان «تخليـص الإبريـز في تلخيـص باريـز». وسـنتناول مقتطفـات مـن الجـزء الأول مـن هـذا الكتـاب بوصفهـا نموذجًـا لإسـهامات الطهطـاوي في إثـراء المكتبـة العربيـة.
يتحـدث رفاعـة في القسـم الأول مـن كتابـه عـن أيامـه الأولى منـذ خروجـه مـن القاهـرة إلى الإسـكندرية، التـي وصفهـا بأنهـا ثغـرٌ مـاؤه مالـح يوصـل إلى الديـار الفرنسـية. وقـد اسـتقلت البعثـة سـفينة حربيـة فرنسـية أبحـرت مـن الإسـكندرية إلى مرسـيليا، واسـتغرقت الرحلـة ٣٣ يومًـا. وفـور وصولهـم إلى المينـاء، نُقـل الطهطـاوي والطـلاب المبتعثـون معـه إلى الحجـر الصحـي، الـذي كان يُعـرف آنـذاك باسـم «الكرنتينـة»، خوفًـا مـن انتقـال الأمـراض المعديـة إلى سـكان المدينـة، التـي وصفهـا رفاعـة بالسـاحرة. وقـد أفـاض الكتـاب في بيـان الحكـم الشرعـي للحجـر الصحـي، واختـلاف آراء الفقهـاء حـول مشروعيتـه، وأقـام رفاعـة وزمـلاؤه في هـذا المحجـر ١٨ يومًـا، وكانـت المعاملـة فيـه جيـدة مـن قبـل المسـؤولين.
يتضـح مـن أسـلوب وصـف رفاعـة لأيامـه الأولى في فرنسـا شـعور الدهشـة والإعجـاب، أو مـا يُعـرف في العلـوم الاجتماعيـة الحديثـة بـ«الصدمـة الثقافيـة»، وهـي المرحلـة التـي يمـر بهـا الفـرد الغريـب عـن المجتمـع حتـى يتكيـف معـه. وتُسـمى المرحلـة الأولى مـن هـذه الصدمـة بـ«شـهر العسـل»، حيـث يسـود الانبهـار والإعجـاب بـكل مظاهـر الحيـاة في البلـد الجديـد، وهـو مـا عاشـه رفاعـة في أيامـه الأولى في مرسـيليا، إذ وصـف كل شيء بالجـمال والروعـة، حتـى إن الكلـمات – عـلى حـد تعبـيره – لا تكفـي لوصـف مـا رآه.
ومـن مظاهـر معايشـة رفاعـة لمـا يُعـرف اليـوم بالصدمـة الثقافيـة، وصفـه القصـور والمبـاني المحكمة البنـاء، والحدائـق الواسـعة الجميلـة، والأثـاث الغـربي، والأزيـاء. كـما اسـتوقفته طـرق تنـاول الطعـام، حيـث شـاهد موائـد الطعـام التـي لا يُسـمح فيهـا بـالأكل إلا بالشـوكة والسـكين، وتقديـم الطعـام في صحـون فرديـة لا يُشـارك فيهـا غـير صاحبهـا، والمـاء في أقـداح خاصـة يـشرب منهـا شـخص واحـد فقـط، لدواعـي النظافـة والصحـة، وهـي طقـوس لم تكـن مألوفـة لـدى العـرب آنـذاك، وربمـا لا تـزال غريبـة حتـى اليـوم في كثـير مـن المناسـبات الاجتماعيـة.

وفصّل الطهطاوي في طرق تقديم الطعام في فرنسا، مبينًا وجود تدرج في الوجبات، حيث يبدأ الطعام - كما قال - باحتساء الشوربة، ثم اللحوم، ثم أصناف مختلفة من الطعام، وتنتهي الوجبة بالسلطة، ثم الشاي والقهوة، موضحًا أن لكل صنف أطباقه الخاصة، فالسلطة مثلًا تُقدّم في صحون مخصصة لها دون غيرها.

كما أُعجب رفاعة باتساع الطرق وتنظيمها في مرسيليا، حيث تستطيع عدة عربات السير في الوقت نفسه. ووصف واجهات المحال التجارية المصنوعة من الزجاج الشفاف، التي تُمكّن المارّة من رؤية السلع والبائعات من الخارج. وتحدث عن النساء في فرنسا، واصفًا لباسهن بشيء من الخلاعة، مع شدة الحسن والفتنة، وذكر أنهن يعملن في المهن التجارية والمقاهي، بينما يعمل الرجال في المهن الشاقة. وأشاد بنظافة مرسيليا وعناية سكانها بنظافة المنازل والأماكن العامة، بما في ذلك الشوارع، مع تعليقه الشهير بأن «النظافة من الإيمان»، وليس عند الفرنسيين - على حد وصفه - من ذلك مثقال ذرة.

ووصف الطهطاوي المقاهي في فرنسا بأنها أماكن جليلة يقصدها أعيان المجتمع، وليست مجرد تجمع للعامة، كما كان الحال في المقاهي المصرية في مطلع القرن التاسع عشر. وأضاف أن الفرنسيين يشربون القهوة مع السكر في أقداح كبيرة، تفوق حجم الأكواب المستخدمة في مصر آنذاك بأربع مرات تقريبًا.

التقى رفاعة خلال إقامته عددًا من نصارى مصر والشام الذين غادروا مع الجيش الفرنسي عند انسحابه من مصر، كما ذكر أن رهطًا من المسلمين خرجوا كذلك مع الفرنسيين لكونهم من مؤيديهم. وأبدى أسفه لتحول بعض هؤلاء القلة من الإسلام إلى النصرانية، باستثناء امرأة عجوز ظلت على الدين الذي ارتضاه الله لعباده. وبعد خمسين يومًا، غادر رفاعة ومن معه مرسيليا إلى باريس، وقد أُعجب بالطريق بين المدينتين، حيث كانت عربات الخيول مرتبة وجيدة، ويمكن للمسافر استئجار مقعد أو العربة كاملة مع قائدها، كما تنتشر على الطريق أماكن للطعام والشراب والراحة، واستغرقت الرحلة سبعة أيام.

نشر هذا المقال في صحيفة الوطن بتاريخ ٢٣ أكتوبر ٢٠٢١

المقابر العمالية وبناء الهرم

المقابر العمالية وبناء الهرم

على الرغم من التراكم الثقافي والتقدم العلمي والتقني، لا تزال أهرامات الجيزة لم تبح بكل أسرارها، وما يكتنفها من مجهول يفوق ما هو معلوم. ولعل فك شفرات اللغة المصرية القديمة، المعروفة بالهيروغليفية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، قد أسهم في فهم قصة تكوين الأهرامات وثقافة المصريين القدماء. ويُضاف إلى ذلك الدور البارز الذي قام به الفرنسي شامبليون في فك النصوص المصرية القديمة، إذ يُعدّ من مؤسسي علم المصريات، ذلك العلم المعني بدراسة الحضارة المصرية القديمة. ويُعدّ الدكتور زاهي حواس من أبرز علماء المصريات في الوقت الحاضر، وقد سبق له العمل وزيرَ دولة لشؤون الآثار في جمهورية مصر العربية. وُلد حواس عام ١٩٤٧م في محافظة دمياط، ثم واصل مسيرته التعليمية حتى حصل على درجة البكالوريوس في الآثار من جامعة الإسكندرية، قبل أن يتمكن لاحقًا من الحصول على منحة دراسية أمريكية لدراسة الماجستير والدكتوراه في علم المصريات بجامعة بنسلفانيا، وهي من أقدم وأعرق الجامعات الخاصة في الولايات المتحدة.

ولعل من أهم إنجازات حواس الأثرية اكتشافه مقابر العمال بالقرب من أهرامات الجيزة عام ١٩٩٠م. ففي ذلك العام تمكن من العثور على مقابر العمال الذين شاركوا في بناء الأهرامات، كما جرى الكشف عن بقايا المدينة التي عاش فيها الفنانون والمشرفون على هؤلاء العمال. وقد عثر حواس على أعداد كبيرة من أقراص الخبز، وبقايا السمك، وعظام المواشي، ويُقدَّر عدد العمال الذين شاركوا في بناء الأهرامات بنحو عشرة آلاف عامل. وهنا يبرز التساؤل عن أهمية هذا الاكتشاف. وتتجلى أهمية اكتشاف المقابر العمالية في تفنيد العديد من الفرضيات القديمة والمتداولة حول بناة أهرامات الجيزة، ومن بينها الزعم بأن الأهرامات شُيّدت بواسطة السحرة أو الجن؛ إذ إن وجود الهياكل العظمية لبناة الهرم يؤكد أن البناء كان عملًا بشريًا خالصًا، لا صلة له بالعوالم الخفية. كما أسهم هذا الاكتشاف في دحض الفرضية القائلة بأن مخلوقات فضائية قامت ببناء الأهرامات.

ويرى حواس أن من بنى الأهرامات هم المصريون القدماء أنفسهم، وليس عرقيات أخرى، ويؤكد بطلان الزعم اليهودي القائل إنهم من بنوا الأهرامات الكبرى. فالفترة الزمنية التي شُيّدت فيها الأهرامات تقع ما بين ٣٢٠٠ و٢٥٥٠ قبل الميلاد، وذلك حين أمر الملك خوفو

ببناء مستقر أبدي له في العالم الآخر. في المقابل، يُعتقد أن النبي يوسف، عليه الصلاة والسلام، قدم إلى مصر في حدود عام ١٦٥٠ قبل الميلاد، أي بعد بناء الأهرامات بزمن طويل، مما يعني أن أهرامات الجيزة كانت قائمة قبل قدوم بني إسرائيل إلى مصر. كما يرى المؤرخون أن قدوم النبي يوسف عليه السلام كان في عهد الهكسوس. كما يدحض اكتشاف زاهي حواس للمقابر العمالية الفرضية التي تقول إن بناة الأهرام كانوا من العبيد؛ إذ إن دفن العمال بالقرب من الهرم الأكبر، وهو مكان مقدس لدى المصريين القدماء، يدل على مكانتهم، كون الهرم مقبرة مقدسة. وقد آمن المصريون القدماء بالحياة الآخرة والخلود، ويتضح ذلك جليًا في البرديات والنصوص الدينية التي خُلّدت في كتاب الموتى، إضافة إلى الدليل المادي المتمثل في تحنيط الملوك والشخصيات المهمة. وبناءً على ذلك، يؤكد حواس أنه من غير المعقول دفن العبيد بالقرب من الملوك.

وفي عام ٢٠١٣م، تم العثور على برديات تؤكد صحة استنتاجات حواس، وتثبت أن المصريين هم بناة الأهرامات دون غيرهم. فقد عثرت بعثة مصرية فرنسية مشتركة على برديات في مغارات وادي الجرف بالقرب من مدينة السويس، تضمنت تفاصيل دقيقة عن بناء الهرم الأكبر للملك خوفو، وكيفية تشييده، ونوع الأحجار المستخدمة فيه، وطرق نقلها، وعدد العمال، والتنظيم الإداري لعملية البناء. وقد أوضحت هذه البرديات أن جميع أطياف المجتمع المصري شاركت في بناء الأهرامات، سواء من خلال التمويل أو العمل المباشر.ويُعدّ اكتشاف هذه البرديات، بحسب وصف الدكتور حواس، أهم حدث في علم المصريات في القرن الحادي والعشرين. ومع ذلك، لا يزال هرم خوفو يخفي عن البشرية كثيرًا من أسراره الكبرى، التي قد تحتاج إلى مئات السنين لكشفها.

نشر المقال في صحيفة الوطن ٢١ أغسطس ٢٠٢١

المراجع

- البشر, سعود و آخرون. (2024). الطلاب الدوليون في مؤسَّسات التعليم العالي في الوطن العربي. International Journal on Humanities and Social Sciences, (55), 68-85.
- البشر, سعود .(2021). رفاعة الطهطاوي في مرسيليا. صحيفة الوطن
- البشر, سعود. (2021). نابليون بونابرت والمولد النبوي. صحيفة الوطن
- البشر, سعود. (2021). المقابر العمالية وبناء الهرم. صحيفة الوطن
- أبو نحل, اسامة. (2011). الثورة العرابية : قراءة جديدة. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية, 31(328). https://doi.org/10.34120/aass.v31i328.791
- أبو هاشم, جهاد. (2021). مساهمة أبناء الجزيرة العربية في حفر قناة السويس. صحيفة الاقتصادية
- حبيب, عبدالرحمن.(2022).اعرف كل شىء عن كتاب الموتى.. لماذا كتبه الفراعنة؟. صحيفة اليوم السابع
- حجازى, آمنة. (2022). سعد زغلول وقيادة ثورة 1919 (قراءة في مذكراته). مصر الحديثة, 21(21), 129-101.
- حسيني, عادل. (2016). سعد زغلول و دوره في الحركة الوطنية المصرية 1927-1882. رسالة ماجستير. جامعة محمد خيضر بسكرة
- حواس, زاهي.(2014).أخناتون الفرعون المفترى عليه. صحيفة الشرق الأوسط
- سلام, محمد . (2023). النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفى كامل. مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية, 38(1), 1337-1233.
- الشناوي, عبدالعزيز.(2010). الازهر جامعا وجامعة. مكتبة الانجلو المصرية
- صحيفة الاتحاد الامارتية .(2009). الإيطالي ماريو روسي.. رائد العمارة الإسلامية الحديثة ومبدع زخرفة «الأرابيسك». الموقع الالكتروني
- عبدالرحمن , محمد. (2022). عمر مكرم.. حياته من الصعيد إلى قاهرة المعز.. وحكايات المنفى. صحيفة اليوم السابع
- العربية. (2021). صور.. حين شارك السعوديون في حفر قناة السويس!. الموقع الرسمي
- عمر,يوسف. (2016). البكوات المماليک في مصر نهاية الحملة الفرنسية حتى مذبحة القلعة 1811-1801م, دراسة في ضوء الوثائق البريطانية غير المنشورة. المجلة التاريخية المصرية, 50(50), 316-277.
- المعرفة. (2026). أنطوان كلوت. موسوعة المعرفة
- الموسوعة الحرة. (2026). أنطوان كلوت. موسوعة المعرفة
- الموسوعة الحرة. (2026). كتاب الموتى. الموقع الرسمي

• مؤنس، أشرف محمد عبدالرحمن، و الشريف، محمد سيد. (2025). دور المجتمع المدني في تولية «محمد علي باشا» حكم مصر 1805 م. مجلة الأمن القومي والإستراتيجية، مج3, ع5 ، 110 - 121. مسترجع من
http://search.mandumah.com/Record/1530723

• الهيئة العامة للاستعلامات. (2022).قناة السويس قصة شعب في 150 عاما. كتاب رسمي مطبوع من جهة حكومية في جمهورية مصر

• Bassir, Hussein. (2023).ETERNAL EGYPT PAST & PRESENT SURVIVING COUNTRY FOR MORE THAN 7000 YEARS.New Cairo Compaany.

• Oakes, L. (2010). Sacred sites of ancient Egypt: An illustrated guide to the temples and tombs of the pharaohs. Hermes House.